الرواية الفائزة بجائزة ابن باديس للابداع الادبي

زهرة التوليب

رواية

للكاتبة

بونور سلاف

رواية

زهرة التوليب

للكاتبة :

بونور سلاف

الفصل الأول

الفصل الأول

اليوم هو : 2019/6/9

أمُرّ بمحاذاة المرايا فأصادفني , أنظر إليّ أكاد أصافحني , أكاد أدعوني لفنجان قهوة, أكاد أسألني من أنتِ؟ فأجيبني ....أنا أنتِ !

يجهش قلبي لحظة ثم أعود و أسأل أ هذه أنا حقا ؟ ما الذي ضاع مني؟ ما الذي سقط ؟ ما الذي اغتيل بداخلي ؟ و ما الذي انكسر ؟

أتفحصني فلا أجد غير البقايا... بقايا ملامح شوه تفاصيلها في لحظة غدر خنجر الحياة, تركني عند الحد الفاصل بين الموت و الحياة في مكان ما على الهامش ,هناك... أين يرفضك الموت و ترفضك الحياة !

هذا الشعر الأشقر المنسدل حتى أسفل ظهري و الذي طالما أيقض غرور الأنثى بداخلي لم يعد يعجبني! فغرور الأنثى قد تجاوزني بمسافة ! حتى هذا النمش الذي كنت ببراءة طفلة أخاله حبات رمل اعترضت طريقها

في يوم عاصف فاصطدمت بي و تناثرت على وجهي لم يعد يعجبني فقد تجاوزت براءة الطفولة بمسافة أيضا ,ما عاد شيء يعجبني , اليوم أنا لا أرَ سوى غدر الزمان , لا أرَ سوى جرح بملامح انسان !

أتجه الى غرفتي , أفتح مذكرة يومياتي كما أفعلُ كل ليلة , أحمل قلمي كأني أحمله أول مرة ,كأني أكتشف لأول مرة خفته و هشاشته لأدرك بعدها أن قوة الكلمات التي يسطرها صنعت له ثقلا لا علاقة له بقوانين الفيزياء ! و لا حتى ثقلي ,ولا حتى هشاشتي على علاقة بتلك القوانين أنا التي غدوت ثقيلة المواجع ,هشة المشاعر , تتراقص الكلمات كما يحلو لها على أوتار قلبي فتحييني كلمة و تشيعني أخرى الى مثواي الأخير !

في الحقيقة لا أقو على حمله أو على كتابة حرف واحد,فأكتفي بتدوين التاريخ أعلى الصفحة و أتركها للبياض يتضامن صمتها مع حدادي !

في تفسير اللون الأسود يقولون أن الأجسام التي تمتص جميع الموجات الضوئية و لا تعكس أيا منها ستبدو لعيوننا سوداء ,و كذا قلوبنا عندما تعلن على أيامنا حدادا فلن تقدم لعيوننا سوى تفسيرا آخر لهذا اللون !

لم أدرك قبل اليوم أن رحمة الله كانت تغدقني طيلة أربع و عشرين سنة الى الحد الذي أسدلت فيه ستائر الوهم على كل نوافذ حياتي لتحجب ضوء حقيقة كانت ستقضي على أحلامي باكرا جدا !

لا أنكر أني بملء ارادتي كنت ألهث خلفها ...أحوم حولها كمن يحوم حول حتفه ! أستعجلها كمن يستعجل حتفه, لم أتوقع أن يكون وقوعي من

ذلك النوع الخبيث الذي لا تموت بعده أو تحيا , بل سيتركك لعاهة مستديمة تقعدك على كرسي البؤس مدى الحياة !

لماذا أنا ؟ سؤال نطرحه جميعا تطاولا على القدر و اعتراضا على مشيئته , هو نفس السؤال الذي لم نطرحه حين كانت الحياة تغدقنا بما حرم منه غيرنا ! و كم سيبدو لئيما لو يطرح بالمعكوس فيصبح "لماذا ليس هو ؟ " فهل فطرة الانسان أن يكون لئيما ؟ أم أنه اختياره؟ هو الذي يبكي خساراته و لا يفرح بمكاسبه لأنه في جميع الأحوال سينشغل عنها بمكاسب غيره !

فكرت كثيرا..وضعت الاحتمالات و اختلقت الأعذار , هل الفقر هو السبب؟ يا له من فقر ذاك الذي يدفع الوالد للتخلي عن ولده ! أهي الخطيئة ؟ يقولون أن محترفات الدعارة لا ينجبن انما اللقطاء هم أبناء لحظة ثقة , فيا لها من ثقة ! و يا له من غدر ! ثقة أنثى خانت نفسها و مبادئها و غدر ذكر تدحرج من سلم الرجولة حتى لم يعد له من طوابق حروفها نصيب .

ربما كانت صغيرة أو مريضة لا تقو على حمل عبء الأمومة ! كنت أكتب السيناريو بيدي فأصدقه ,فأبكيه ثم أمسحه لأكتب آخر ,لا أدر كم من السيناريوهات كتبت و كم من المآتم على حالي أقمت , الأدهى و الأمر أن الحقيقة لم تكن لا هاته و لا تلك ! بل كانت أغرب و أقرب الى الخيال !

اسمي سارة , نشأت بمدينة مرسيليا الفرنسية وسط عائلة جزائرية مسلمة , و على غرار ربع مليون مغترب أثلجت صدورهم وحشة "الغربة

" فحضن هذه المدينة لا يزال دافئا بما يكفي لادابة كل جليد, في الجزائر كانوا ينعتونها بالولاية التاسعة و الأربعين و في فرنسا يقولون أن سباق السيارات الشهير "باريس داكار" كان يدخل الأراضي العربية اعتبارا من مرسيليا , هذا صحيح فأسماء المطاعم و لهجة الكلام و صومعات المساجد المطلة هنا و هناك و الموسيقى المنبعثة من الشرفات و مظاهر التقوى التي تفيض بها المساجد و الأسواق أيام الجمع و المواسم الدينية و كذا منظر الأوساخ المكدسة في الأحياء الشعبية و بمحاذاة الطرقات لن يشعرك سوى بأنك في احدى المدن المغاربية الكبرى .

هنا كل شيء و كل شارع يشير بطريقة أو بأخرى الى الحضور العربي و الى العقلية العربية التي صارت أمرا واقعا في مدينة قد تغفر لك خطيئة الانجراف للعيش على الطريقة الغربية طيلة أيام السنة و هو ما لن تغفره بأي حال من الأحوال في الأيام المباركة أو ما يطلق عليه هنا "العواشر".

و أنا تلك الثقافة التي قدر لها أن تحيا بين ثقافتين ,واحدة تعلمك كيف ترتدي ثياب التقوى و أخرى تعلمك كيف تخلعه , أنا الجيل الذي جاء بين جيلين الأول شديد التمسك بمبادئه و الآخر قرر فجأة أن يتخلى عنها ! و بين هذا و ذاك كنت أنا .

أنا تلك التركيبة المزدوجة التي ستجد فيها من كل شيء شيء ,أزرع الورد و أعشق العطور الفرنسية و أقصد مطعم عمي أحمد في الشارع الشعبي المسمى"rue de la fare " أو" حومة الشاوية" على لسان الجزائريين لأتناول "شوربة الفريك" أو "الشخشوخة" أو "الكسكسي" ضاربة عرض

الحائط تلك الحسابات التي تجبرك على أكل الفتات بدريعة الحفاظ على رشاقتك

طالما أحببت هذا المطعم الذي يستقبلني فيه العم أحمد بحفاوة دوما ,يحدثني عن معاركه الصغيرة في الحياة و كيف انتصر عليها , يحدثني عن الثورة الجزائرية التي حارب في صفوفها و كان قد خسر فيها أفرادا من أسرته ,كنت أصغي اليه و أتساءل " هل يحدث أن يحارب المرء دولة ثم يسكنها ؟ "

أكثر ما يحز في في نفسي في هذه المدينة هو منظر أولئك الشباب اليائس ممن ركبوا قوارب أحلامهم أو ما يدعى بقوارب الموت تاركين خلفهم وطنا لا يغار على أبنائه , هؤلاء الذين اختاروا أن يكون ليأسهم أمواجا يتصارعون معها في عرض البحر , يهزمونها أو تهزمهم بشرف على أن يموتوا ببطء على أسرتهم و على مرأى من وطن لن يعلن على وفاتهم حدادا, ليصطدموا بعدها بواقع أن أوروبا الأحلام لم تحمل لأحلامهم سوى علب سجائر مهربة يبيعونها في "سوق نواي " مقابل أجر زهيد فلا حق لهم في العمل هنا , يعيشون حالة مزرية ,يبيت بعضهم في العراء أو في المستشفيات أو المساجد و يستأجر بعضهم غرفة صغيرة قد يتشاركها مع أربعة آخرين ,حتى التنقل قد يصبح مستحيلا في حال تشديد الرقابة عليهم و في حال وقعوا بين يدي الشرطة يتم ارسالهم الى أوطانهم.

الجدير بالذكر هو أن معاناة المهاجرين الجزائريين قد بدأت في الأصل عن زمن الاحتلال الفرنسي الذي غدى جيوشه في الحربين العالميتين

برجال الجزائر و المغرب و نتيجة لذلك يحمل أبناؤهم الذين ولدوا بفرنسا الجنسية الفرنسية.

الحقيقة أن هؤلاء المهاجرين الأوائل جاءوا الى فرنسا المنهكة بفعل الحروب بعد أن استقدمتهم للدفاع عنها و ترميم الخراب الذي لحق بها فأعادوا تقويم دعائمها العمرانية و الاقتصادية و ساهموا في تقدمها و استعادة رفعتها بين الدول , هؤلاء العمال الكادحون لم تكن تنتظرهم هنا سوى أعمال شاقة لا تفرض أية مهارة أو اعداد مسبق فقد عملوا في الأنفاق المظلمة التي أخرجت ميترو باريس الى النور بوسائل بدائية و عملوا في ورش البناء و مصانع الحديد و المناجم دون تأمين فقد كانت فرنسا تعلم أن الوافدين اليها و الهاربين من مستعمراتها لا خيار لهم سوى القبول بالأوضاع المزرية.

ان مرارة الغربة التي أحس بها الجيل الأول من المهاجرين لم تكن وليدة البعد عن الأهل و الأقارب بقدر ما كانت ناجمة عن نظرات الرفض و التهميش التي لاحقتهم لسنوات طويلة من طرف السكان الأصليين ,ينعتونهم بالبربر الهمج و بالعرب المتسخين ثم ان لمع نجم أحد من أبنائهم و داع صيته في العالم يسارعون لنسبه اليهم و المفاخرة بأنه صناعة فرنسية ,نذكر في ذلك اللاعب الجزائري الأصل "زين الدين زيدان" و الذي ولد و ترعرع بمدينة مرسيليا و له فيها أعز الأصدقاء و أغلى الذكريات .

معاناة هؤلاء المهاجرين حاول تصويرها أحد أبنائهم و كان مخرجا سنيمائيا يدعى "غورجو بورليم" من أصل جزائري في فيلم أطلقوا عليه

عنوان "العيش من الجنة" يروي فيه كيف كان المهاجرون يحلمون بالهجرة كأنهم ذاهبون الى الجنة لكن الواقع كان مخيبا للآمال , يقول غورجو أنه كان بالنسبة اليه من الضروري القيام بهذا العمل تكريما لهؤلاء خاصة و أنهم سقطوا كليا من الذاكرة الفرنسية و من غير العدل عدم الحديث عنهم سيما أنهم ساهموا في بناء فرنسا و استعادة مكانتها بين الدول.

كان أبي من علمني حب هذه المدينة كما علمني حب كل الأشياء التي لا تشعر معها بحاجة للاصلاح من جلستك أو لتفقد هيئتك, تلك التي لا يعيبها أن تجاهر بفقرها كما تجاهر بغناها بل و يتحول همك معها لنكتة سخيفة تضحكانها سويا.

هو الذي قال لي يوما " ان كانت باريس مستعدة لافراغ جيبك مقابل زجاجة عطر شحيحة تزينها كذبة الماركات العالمية حتى أنك لتشعر و أنت تكتشف سعرها الذي يفوق راتبك الشهري كما لو أنها وضعت هناك لتحقيرك, لترش كحولها على جراحك, تكاد تسمعها و هي تقول لك في صمتها الخبيث : "اذهب من هنا يا صديقي فرائحة الفقر كريهة دوما" , فوحدها مرسيليا كفيلة برد اعتبارك و هي تقدم لأنفك عطرا لا يمكن لمن عايش الغربة أن يقدر له ثمنا "ريح الوطن" فما أسخى مرسيليا و ما أبخل باريس !"

أبي , هذا الرجل الطيب الذي أخدت من منطقه في الحياة أكثر قناعاتي ,كان هو أول وطن يسكنني و على أساسه هو تعلمت كيف أحب أوطانا

و أبغض أخرى , هو اليوم رجل يناهز السبعين من العمر ,خطوط العمر بدأت تزحف على وجهه بسرعة مخيفة تركها عبء الأيام المترامي على عاتقه كل تلك السنين كما يترك فنان لمساته الأخيرة على لوحة رسم.

كان هو من علمني أن قيمنا ترتدينا كما نرتدي ثيابنا و في حين نستمتع بخلع الأثواب و ارتدائها كما يحلو لنا فقيمنا لن تخلع منا الا من يحاول أن يدوس على طرفها و حين سألته عن أغلى ثوب يرتدي الفتاة قال عفتها و عن أجملهم على الاطلاق قال حنانها.

أذكر كيف كان يقلق عليّ عندما أتأخر عن العودة الى البيت, خوفه المفرط كان يخنقني و يجعل علاقتي مع ساعة يدي في توتر دائم, لا أدرِ لم يصدق الناس أن الزمن دقيق الى هذا الحد و أن الساعة اختراع جيد للبشر فالطبيعة لا تحتمل الدقة و الزمن لم يكن بتلك الدقة يوما فهو يحلق بك كطائرة فوق قارات الفرح و يمضي مثقلا كجمل في صحراء الوجع, لو أن الزمن أخد على محمل الواقع لا الأرقام لحكم على السجين بنصف مدة عقوبته على اعتبار أن الساعة داخل السجن تعادل النصف خارجه.

هكذا كانت علاقتي مع الأرقام فاترة دوما و لم تتحسن الا قبل سنة عندما اشترى لي والدي سيارة فقد شعرت أني استطعت أخيرا اختزال المسافات و كسب مزيد من الوقت الذي يضيع معظمه في محطات الانتظار أو في التنقل مشيا من مكان لآخر.

ربما لم يكن والدي يعلم حينها أنه بالنسبة لفتاة لم تبلغ سن الرشد الا على الورق قد أهداني ما هو أغلى من السيارة , لقد أهداني حريتي معها .

أما أمي فهي التي أعود معها طفلة لا تفقه شيئا في الحياة و يحدث أن أكبر اذا ما تذكرت فجأة أني وصلت لسن ينبغي عليّ فيه أن أعثر على شريك لحياتي بدل اضاعة وقتي في أمور لا تفهمها كأن أقضي أحيانا معظم يومي في حديقة المنزل أزرع التوليب و أعتني به , هي ترى في ذلك ضربا من السذاجة و أراه أنا ضربا من السعادة أن أمنح الحياة لمخلوق لا غاية له من الحياة سوى أن ينثر عطره على أيامك

و بالرغم من اختلاف نظرتنا للأمور فأنا معجبة بقدرتها المذهلة على انجاز العديد من الأعمال في الوقت نفسه و بالكفاءة نفسها كل يوم, فهي تعمل في ورشة للخياطة و تقوم على شؤون المنزل و تنزل للأسواق و تعد الأطباق تتبرع بها للمصلين في المسجد أملا في الحصول على بركتهم ثم انها لتجد الوقت لتتحدث الى جارتنا المغربية عند باب المنزل لثلاث ساعات متواصلة , تلك التي ترفض مواصلة الحديث في الداخل لأنها على عجلة من أمرها !!

أنا سارة التي عاشت طفولتها بين الورود , سارة التي لم تسأل يوما عن سر ملامحها الغربية , لم تستنكر يوما لعروبتها تجد نفسها اليوم أمام أسئلة فلسفية صعبة , هل يقدر الضمير بثمن؟ هل يوجد في الحياة ما يستحق أن ندفع مبادئنا ثمنا للحصول عليه؟ هل فطرة الانسان الأقوى

هي الخير أم الشر؟ و السؤال الأهم بالنسبة لي كيف للمشاعر الفطرية أن تموت بداخلنا؟

شعور غريب ينتابني ,كل شيء حولي يبدو صامتا, كئيبا, حتى السماء قررت أن تبكي الليلة لمأساتي , أستمع لصوت حباتها ترتطم بالأرض لتعزف مع الرياح و أوراق الشجر سيمفونية الطبيعة المميزة

أجلس بجوار النافذة لأطالع المشهد دون رغبة بالاختلاط به , أفتح مذكرة يومياتي لأعود بالزمن الى يوم 18 /2018/10 أي قبل ما قارب السنة , في تلك الليلة كنت في منزل عمتي

الفصل الثاني

الفصل الثاني

كان عصام مشغولا بترتيب أغراضه و كنت أطالع لوحاته المعلقة على جدران غرفته , استوقفتني احدى اللوحات التي بدا لي من شدة لمعانها أنها لم تجف تماما :

- أهذه لوحة جديدة؟
- أجل

يقول و هو يخرج أوراق رسم و أقلام تلوين من درج مكتبه

- أ أفهم أنك عدت للرسم من جديد؟
- أحيانا عندما أفرغ

أقول بنبرة من يحدث نفسه :

- كأنك مشغول معظم الوقت !
- ماذا قلت؟
- أستغرب لمَ توقفت عن الرسم فجأة بعدما كبرت قناتك على يوتيوب , أذكر أن آخر لوحاتك قد حظيت بتفاعل كبير من المتابعين ..أ ليس غباءا أن تتوقف الآن بعد التقدم الذي أحرزته؟

يصمت لحظة ثم يقول و هو يخرج أغراضا أخرى من خزانته يضعها على الأرض :

- نحن لا نرسم عندما نريد ,بل عندما نشعر !
- ما أعنيه أن انقطاعك المتكرر قد يضرك , نجاحك مرهون باستمرارك
- النجاح غير مرهون بشروط و الفنان الحقيقي هو الذي يفرض على الساحة شروطه و ليس العكس
- و ما هي شروطك؟

يترك الأغراض من يده ثم يقول و هو يرفع عينيه لينظر إليّ :

- كفي عن طرح الأسئلة أنت تزعجينني

أقول بنبرة حزينة :

- أنا فقط أريد مساعدتك ..أريدك أن تتجاوز أزمتك فقد بدأت أعتقد فعلا أنها أخدت من الوقت أكثر مما ينبغي !
- ما رأيك في أن تكفي عن الثرثرة و تساعديني في نقل هذه الأغراض الى القبو

قالها و هو يشير الى صناديق صغيرة كان قد خبأ أشيائه داخلها , في تلك اللحظة داهمني شعور شديد بالاستياء فقد كنت أعلم أنه يخزن أغراضه القديمة ,ألبوم صوره, شهاداته العلمية و كل ما له علاقة بالماضي داخل خزانة قديمة في قبو المنزل ! خزانة بالية ,باهتة ,زادتها الأغبرة شحوبا على شحوبها شاء لها القدر أن تحبس بين رفوفها العتيقة عمرا كاملا للذكرى ما كانت لتزيدها سوى بؤس على بؤسها.

انه عصام ابن عمتي , أخي من الرضاعة و رفيق طفولتي, هو الذي كان قد خبر لوعة تقلبات الأيام في احدى أكثر مشاهدها مأساوية عندما تعرض قبل ثلاث سنوات لحادث سير مروع أودى بحياة شقيقه الأصغر الذي كان على المقعد الخلفي يلفظ آخر أنفاسه بينما كان يحاول انقاذه و أقعدته النيران التي التهمت أجزاءا من وجهه و جسده كما التهمت كل ما نجى منه فيما بعد ! عصام الذي لم يستطع أن يغفر لنفسه ذنب فقدان شقيقه الذي يتحمل بلا ريب جزءا منه بسبب قيادته المتهورة ظل يتجرع مرارة الندم لثلاث سنوات حتى أنه يظن أن التشوه الذي أصاب ملامحه كان محض عقاب الهي , ظل يحاول التخلص من تلك المشاهد

التي علقت برأسه و لازمته حتى في نومه لكن دون جدوى فالصورة كانت أقسى من أن يلفظها عقله حتى مع مرور السنين. حالة من الاكتئاب اغتالت مشاريعه و أحلامه و أقعدته بين قضبان المنزل الذي لم يعد يغادره الا للضرورة , لم يعد له صاحب ذلك منطق الطبيعة فالأشياء ستتخلى عنك شيئا فشيئا اذا ما ابتعدت عنها , كل ذلك الزخم من حولك سيتلاشى , حتى ذلك الصاحب الذي بكى مأساتك أكثر منك أين هو اليوم؟ مع مرور السنين ستستيقظ من نومك ذات صباح و لن تجد بجوارك سوى كتف واحد تتكئ عليه , شخص واحد أو اثنان على الأكثر هما كل ما ستمن عليك الحياة به, و هذا ما حدث كنت أزوره باستمرار محاولة الى جانب والدته العمة فريدة مساعدته لتخطي محنته فكنت أنا و بشخصيتي المرحة أحاول اختلاق الأحاديث أو أدعي رغبتي في تحديه في ألعاب الفيديو و كانت هي بعقليتها الشرقية تحضر أئمة المساجد ليقرؤوا عليه بعضا من آيات الله راجية المولى أن تستكين روحه المرهقة.

كنت أشفق عليها مثله تماما هي التي لم تعد تدري أتبكي صغيرها الذي غادرها دون وداع قبل أن تفرح به , أم الآخر الذي قرر أن يفارق الحياة و هو على قيدها أم تبكي زوجها الذي اختاره الموت رأفة به كي لا يشهد على خراب الذي حل بعده و اختارتها الحياة لتجابه كل ذلك بمفردها.

لَكَم أحزنتني رؤيتها على هذا الحال ذلك أنها بمثابة أمي الثانية فقد تزامنت فترة انجابها لعصام مع مرض والدتي – أو هكذا قيل لي – فقامت هي بارضاعي بدلا عنها

كنت أشعر أن عليّ فعل شيء حيالها , أحيانا كنت ألفق الأكاذيب لجعل عصام يخرج من البيت كأن أرتب له موعدا مع أصدقائه في احدى الحدائق العامة أو أدعي مثلا بأني عالقة في مكان ما دون مظلة تحت المطر ليأتي لاصطحابي , كل تلك الحيل الصغيرة لم تكن لتنطلي عليه ذلك أنه و قبل كل شيء فنان تشكيلي الخوض في التفاصيل حرفته ,مثله لن يفوته تفسير اللمعة في عيني مشفق أو اكتشاف شحوب لوننا حين نكذب , بل ان توجهه السريالي يعكس عبقرية فذة في تحليل الوقائع و تصويرها من خلال رسومات غريبة , لا واقعية يصعب فهم البعد النفسي لها ,حتى أن البعض شبهه بالفنان الاسباني سلفادور دالي أحد أهم أعلام المدرسة السريالية , كتلك اللوحة التي صور فيها ثعبانا برأس طفل يلتف حول قدمي شاب يقف مقابل سكة حديدية طويلة في اشارة منه لذكرى شقيقه التي تطوقه و تعيقه عن التقدم في حياته .

كان يصور خيبته المريرة و أحلامه التي دفنها حية بيديه أو ربما لم يدفنها حقا بل أغلق عليها في ركن مهمل من زوايا قلبه فأنا أؤمن تماما بأن لا حياة مع اليأس , لا يمكن لمخلوق بشري أن يحيا بلا أمل , بلا حلم , بلا ماض فما الماضي الا مدرسة قائمة على أعمدة التجارب و سقف الخيبات لك أن تجعل منها مداسا لطوابق أخرى للأمل أو أن تدعها تنهد فوق رأسك لتقضي عليك.

استطاع عبر قناته على يوتيوب الوصول لقلوب الملايين من متذوقي الفن التشكيلي الذين أشادوا كثيرا بموهبته و راح بعضهم يتساءل عن سر هذا الفنان المبدع الذي لازال يعزف عن كشف ملامحه لهم , عصام الذي

كان يشاركهم غسيل قلبه المتقاطر على لوحاته ألوانا و دماءا بذلك القدر من البراعة من كان ليتصور أن الحياة قد تجعل منه لوحة مشوهة معروضة للفرجة أينما حل , تتقاذفها الأعين و الألسن بما شاءت !

طلب مني نقل أغراضه الى القبو , كانت صناديق لم أدرِ ما كان بداخلها ,كنت مستاءة منه :

- لم تفعل ذلك بنفسك ؟ والدتك تعبت كثيرا بسببك , أنت كل ما تبقى لها في هذه الحياة و هي لا تريد سوى أن تراك بخير

رمقني بنظرة باهتة ثم قال :

- لِمَ أنت مغتاضة هكذا !؟ انها صناديق بلا معنى !

تلك عادته يجيب ببرودة أعصاب و باختصار مستفز , لا فائدة من النقاش معه فاجاباته لا تروي حتى ظمأ الأسئلة

حملت صندوقا بامتعاض واضح و نزلت الى القبو ,وضعته مع أشيائه الاخرى و هممت بالعودة لولا أن استوقفني قرص CD ملقا على الأرض قرب خزانة "الذكريات" يبدو أنه سقط منها , ما لفت انتباهي هو كلمة Privé التي كتبت بخط عريض على غلافه , فكرت أنه بخصوص تعليمه ,لم أتحمل منظره البائس على الأرض

أيعقل أن يهان العلم الى هذا الحد؟

قلت و أنا أمسح الغبار المتجمع على غلافه براحة يدي :

- وجدت هذا القرص على الأرض ,يبدو قديما حتى أن رائحته اختلطت برائحة الكتب القديمة ,أهو لك؟

تأمل عصام الCD قليلا :

- لا , لا أعرفه

ثم قال متداركا :

- حسنا, أنا أملك الكثير من الأفلام القديمة في أقراص من هذا النوع, قد يكون لواحد منها

قلت :

- لا أدر ..فكرت أنه قد يكون مهما

لم يستطع عصام تجاوز الشك الذي راوده, كان يعلم أنه لم يرَ قرصا كهذا من قبل , أحضر جهاز الحاسوب ..شغل الCD ..و بعد ثوان كانت المفاجأة !

بدأ الشريط بعرض صور لحديقة جميلة يزينها منظر أشجار الليمون المنعشة و المصطفة بترتيب مدهش على جانبي الحديقة , تلك الصور تركت انطباعا جميلا في نفسي و أعادتني عمرا للوراء , الى ذلك الزمن حين كانت أشجار الليمون تزين حديقة منزلنا , قبل أن تتغير معطيات الأيام

و قبل أن يصير الليمون عنصرا ثانويا في مطبخنا , عجلة الأيام التي ركضت بنا نحو الايجاز في كل شيء ما عاد يعنيها تجفيف قشوراالليمون للتداوي به أو لتعطير الجو بمزج منقوعه مع القرنفل أو عيدان القرفة.

كنت قد سرحت بذاكرتي لبعض الوقت عندما أعادني صوت طفل صغير يضحك ببهجة, ضحكته تبعث على السلام في نفس من يسمعه ,ذلك السلام الذي ما لبث أن تلاشى كسراب , كان قد وضع في حقائبه تاريخي و هويتي و كثيرا من خرافات حياتي و غادر و لم أعد أجد له أثرا في حياتي منذ ذلك الحين. منذ استدارت الكاميرا صوب ذلك الطفل , بل صوب تلك الطفلة الشقراء الجميلة التي لم تتجاوز عامها الرابع كما يبدو, كانت تركض في الحديقة كفراشة داخل فستان أصفر قصير , ترفرف به من شجرة لأخرى و من زهرة لأخرى .

في تلك اللحظة شيء من الفزع بدأ يجتاحني , نظرت الى عصام أبحث في وجهه عن تفسير لما يحدث فلم أجد غير الأسئلة خاصة بعدما اكتشفنا معا بأن تلك الطفلة في الواقع كانت "أنا"

ما الذي يحدث؟ أي فيلم هذا؟؟ و ما الذي أفعله أنا بين أغراض عصام ؟ أسئلة لم أكد أطرحها حتى استدارت عدسة الكاميرا للمرة الثانية لتظهر أمي امرأة ثلاثينية بجمال جزائري أصيل لم يكن قد خانه الشباب بعد, كانت تجلس الى كرسي خشبي تسند ظهرها اليه و تظم يديها الى بعضهما في محاولة لاخفاء التوتر الذي كان باديا عليها , أخدت نفسا عميقا بعمق الحزن في عينيها و الحيرة في قلبي ثم قالت :

" ابنتي الغالية سارة , أنا و والدك قررنا اعداد هذا الشريط لك تحسبا لأي مكروه قد يصيبنا قبل أن نعترف لك بسر أخفيناه عنك طويلا, لا شك أنك اليوم امرأة راشدة , قد تكونين أما أيضا , آمل ذلك فالأمومة ستساعدك كثيرا على استيعاب ما سأقول"

أنا لست أما بعد ! و لا أملك من الرشد سوى بطاقة هويتي ! يبدو أن القدر قد اختار لي توقيتا خاطئا بتقدير أمي

كلماتها كانت سهما يقترب نحو صدري ببطء تفصله عني بضع ثوان بضع كلمات أخرى ليتها قالتها في غير جلسة , على ضفاف نهر السين مثلا أو حتى في احدى قعداتنا المنزلية الدافئة , لماذا اختارت ذلك الكرسي البارد الشبيه بكراسي الاعتراف في البرامج التلفزية , ثم لماذا وضعت كل هذه الحواجز بيننا ؟ كانت بعيدة جدا يفصلني عنها ضباب دمعي ..شاشة صغيرة ...و عشرون سنة !

واصلت :

"قصتنا بدأت بعد تسعة أعوام قضيناها في انتظار ولد لم يكتب له أن يجيء , كنت بدأت أستسلم لمشيئة القدر خاصة بعد تلك العبارة التي تركني لمرارتها طبيب فرنسي كان قد جرب عليّ كل حلول علمه التي باءت بالفشل فلم يجد سوى أن يعترف باخفاقه بأسلوبه الساخر الفض و كان يعلم أنني امرأة عربية بجعبتها من الطقوس ما يجاري علما قائما بذاته :

"اذهبي لتلك النسوة اللاتي يدعين أن بأيديهن البركة "

كنت قررت أن لا أعود اليه منذ ذلك اليوم كما قررت أن أكف عن مذلة التوسل للبشر و الاكتفاء بالتضرع لرب البشر , و ها أنت أخيرا تلك البركة التي نزلت علينا من السماء ذات خريف و ما أجمل أن تستعيد الحياة بهجتها في طلتك .. أن تستعيد أيامنا أعيادها من خلال ابتسامتك أنت ابنتي التي لم يكتب لي أن أحملها في جوفي تسعة أشهر و كتب لي أن أحملها في قلبي مدى الحياة"

هل قالت أنها لم تحملني في جوفها تسعة أشهر؟ توقفت عند تلك الجملة التي كان لها أن تلغي كل ما اصطف حولها من كلمات منمقة , كنت أصغي اليها بذهول من استفاق لتوه من غيبوبة طويلة يحاول استيعاب ما يجري حوله و يحاول قبل ذلك التعرف الى ذاته , أنا التي اكتشفت أن لحياتي حياة أخرى أجهلها و أن لبدايتي بداية لا أعرفها , اكتشفت أن الكذبة كانت حياتي التي عشتها كحلم جميل أثناء غيبوبة طويلة و أن الحقيقة هي كل ما لم أعشه قبل الآن .

كنت أكتشف أيضا كيف أن الكلمات قد تتحول لرصاصة قاتلة تخترقك , فهل نحن على هذا القدر من الهشاشة لنموت على وقع كلمة ! ثم هل قتلتني تلك الكلمات حقا؟ أم أنها قتلت براءة الحياة في عيني ! أم تراها أطلقت على عداد الزمن معلنة نهاية مرحلة من حياتي و بداية أخرى.

للحظة فقدت القدرة على النطق , شعرت كما لو أن الحياة توقفت عند هذه النقطة , كل ما فيّ كان ينهمر الا دموعي , كل جوارحي كانت تعبر الا صوتي , عصام الذي كان مذهولا مما يحدث هو الآخر سارع لايقاف

الفيديو بعدما شعر بأني لست على ما يرام , حاول تهدئتي بكلمات لا أذكرها , ناولني كوب ماء استعدت به شيئا من وعيي , أخدت نفسا عميقا ثم قمت من مكاني , اتجهت الى الحمام لأغسل عن وجهي تلك الغمامة التي أغشت بصري عمرا كاملا , شعرت و أنا أشطف وجهي بالماء كما لو أنني شخص كفيف استعاد بصره لتوه .

ارتديت معطفي , حملت حقيبة يدي ثم قلت أني سأعود الى البيت

- هل جننت ؟ لقد تأخر الوقت , ثم لا يمكنك القيادة و أنت على هذا الحال
- يجب أن أعود , لا يمكنك منعي
- سارة أرجوك...

قاطعته :

- لا تحاول لا يمكنني البقاء

لم أترك له خيارا آخر :

- حسنا سأوصلك اذن

سبقني الى مقعد القيادة و ركبت الى جانبه , كنت أظم حقيبتي بين ذراعيّ أضغط بها على معدتي التي بدأت تؤلمني , لم أتفوه بكلمة, كنت أفكر طيلة الوقت كيف تمكنا من خداعي كل تلك السنوات حتى أنهما دفعاني

لتعلم اللغة العربية و لدراسة تاريخ الجزائر على أنه جزء من هويتي القومية , كنت أشعر بالانتماء لكل ما هو عربي و لكل ما هو أمازيغي أيضا .

طالما أعجبت بقوة المرأة الأمازيغية التي استماتت الى جانب الرجال في الدفاع عن أرضها , فكانت "ديهيا" ابنة منطقة الأوراس القائدة العظيمة و المقاتلة الشرسة التي أطاحت بجيوش الرومان و أوقفت الزحف العربي الاسلامي الى أراضيها فحسب اعتقادها هي فإن العرب كانوا يطمعون في خيرات بلادها و عليها محاربتهم حتى آخر رمق.

أطلق عليها الأمازيغ اسم "ديهيا" أي الجميلة و سماها العرب "كاهنة البربر" و وصفها أعداؤها "بالساحرة المشعوذة" أيا كان فالجميع اتفق على كونها من أشد النساء بأسا عبر العصور

"يسميني العرب بالكاهنة ,يعرفون أني أكلمكم و تستمعون اليّ , يندهشون من رؤية امرأة تحكمكم لأن النساء كن يبعن في أسواق الجواري لديهم , أجمل امرأة ليست سوى سلعة ليس لها الحق في أن تتكلم أو يستمع اليها أحد , المرأة الحرة تخيفهم و أنا بالنسبة لهم الشيطان"

كما ذكر كاتب ياسين في روايته "نجمة" على لسان ديهيا

و من أعالي جبال جرجرة خرجت لالة فاطمة نسومر البطلة القومية التي تحدت عادات مجتمعها القبلي المحافظ لتلتحق بصفوف المجاهدين ابان فترة الاستعمار الفرنسي حيث شاركت في عدة معارك دفاعا عن منطقة جرجرة حتى أن المستعمر أطلق عليها لقب "جان دارك جرجرة" تشبيها لها بالبطلة القومية الفرنسية جان دارك لكنها فضلت لقب

"خولة الجزائر" نسبة "لخولة بنت الأزور" المجاهدة المسلمة التي كانت تتنكر بزي فارس لتحارب في صفوف المسلمين.

كنت مهتمة بقراءة التاريخ و بالتعرف على ثقافة بلدي فقد كنت أؤمن بأن المرء بتاريخه و بأننا مجرد واجهة لهويتنا القومية .

قرأت ذات مرة بأن الانسان بلا تاريخ كانسان بلا عقل ! فهل كان ذلك عقلي حقا؟ أيعقل أن أتحول فجأة لانسان بلا عقل ؟ أيعقل أني قضيت حياتي بعقل مستعار؟ أيعقل أنهما جعلا مني واجهة لهوية ليست هويتي؟ أيعقل أن توجه لي الحياة صفعة كهذه !

لِمَ لم يخبراني بالحقيقة من قبل !كان يمكن لذلك أن يختصر كثيرا من الألم و كثيرا من الخيبة خاصة. ماذا عساي أقول أو أفعل بعد الآن ؟ كيف لي أن ألومهما بعد كل ما فعلاه لأجلي ! بل أني أكاد أجزم أنهما أخفيا الحقيقة لأجلي , كي لا يعكرا صفو حياتي و ربما كنت أتحمل جزءا من المسؤولية أيضا كوني في أحيان كثيرة أتصرف بصبيانية تجعلهما يشكان في نضجي.

لم أكن قد تمكنت من لملمة شتات أفكاري و لا الخروج بأي قرار بعد حين داس عصام على الفرامل لأجد نفسي وجها لوجه مع منزلنا , هذا المنزل الذي يعج بذكرياتي أكاد أسمع ضجيجها , أكاد أراها , منها ما يمر أمام عيني سريعا و منها ما أعجز عن استحضار تفاصيله كأنه يضيع في دهاليز الذاكرة و منها ما يجبرني على التوقف عنده

كنت أخبئ فيه أسراري الصغيرة أو ما كنت أحسبه لفرط براءتي أسرارا ما كنت أدري أنه بدوره يخبىء عني سرا كان منذ البدء طرفا ثالثا فيه و كانت جدرانه شاهدة عليه , كم من الأسرار ستفضحها الأشياء لو نطقت !

دخلته كأني أدخله أول مرة مثقلة الخطى , مشتتة الذهن, باردة الأطراف , أحمل فجيعتي على وجهي , أشعر بشيء من المهانة و أنا أتخيل شكلي يوم دخلته أول مرة , أتخيل نظرات الشفقة في عيون من حولي , أتخيل ذلك الرداء البالي الذي كان يلحف جسدي , تلك المرارة المؤجلة التي لم أكن لأتذوقها يوم دخلته طفلة رضيعة يبدو أنه قد حان موعد ارتشافها جرعة جرعة.

كان المنزل صامتا سوى من ضجيج أمي الاعتيادي و هي توضب المطبخ أما أبي فمن عادته أن ينام قبل هذا الوقت .

وقفت أراقبها من بعيد , من زاوية في الرواق تمكنني من مشاهدة المطبخ من الداخل , لم تشعر بوجودي ,وقفت أتأملها كما لم أفعل من قبل , إذ بي أقع فجأة على تفسير لكل ذلك الاختلاف الذي بيننا ليس في الملامح فقط بل في الطباع أيضا .

أعترف أني أتعبتها و أنها فشلت في جعلي نسخة مصغرة عنها ,حتى في أبسط الأمور كنا نختلف فهي من شلة القهوة و أنا من شلة الشاي, كنت أرفض أن أشارك في تجمعاتها النسوية مفضلة العزلة , كنت أرى في تلك الأحاديث النسوية المكررة تضييعا باذخا للوقت , و هو ما اعتبرته هي تطرفا غير مقبول , كيف أشرح لها أني أفضل تمضية الوقت مع شخصيات وهمية في كتاب على أن أخسر نفسي في جلسة نسائية

مشحونة بالمشاعر المزيفة و بالنوايا غير البريئة أيضا , كنت في كثير من الأحيان أسايرها حين تخيط لي فساتين تقليدية مطرزة ثقيلة للأفراح فأضطر لارتدائها اكراما لها بينما أفضل أزياءا أقل كلفة و أقل بهرجة , كنت أميل للبساطة في كل شيء , لا تغريني كثرة الذهب و قليل من الفوضى لا يزعجني بل اني أرتبك في الأماكن المملة ترتيبا , حتى الرياح وجدت لاحداث شيء من الفوضى على الأرض فلماذا هذا الاصرار الغريب على معاكسة الطبيعة في سننها !

طالما ظننت أن تلك المفارقات التي بيننا كانت محض اختلاف أجيال فهل كانت كذلك حقا؟ أم أن اختلاف الجينات بيننا كان له ذلك الأثر العجيب في تحديد شخصية كل منا !

انتفضَت لرؤيتي فجأة أقف بذلك الصمت المريب في تلك الزاوية من المنزل في ساعة كتلك على غير العادة .

سألتني بتوجس و هي تكتشف آثار الفجيعة على وجهي :

- ما بكِ ؟ ماذا حدث؟؟

أجبت بنبرة مثقلة بالحسرة و بالخيبة أيضا :

- حدث ما كان يجب أن يحدث منذ زمن.

أفزعتها لهجتي المنطفئة فصاحت في وجهي بانفعال :

- لا أفهمكِ , تحدثي بوضوح

ثم تداركت أمام صمتي بنبرة أهدأ :

- هل حدث أي خطب... أرجوكِ أخبريني
- الخطب هو أن تتبعثر المعطيات حولك ...أن تجد نفسك تائها بينها ,لا تستطيع التمييز بين ما هو أصلي و بين ما هو مزيف..الخطب هو أن تصل لتفسير متأخر جدا لكل ما تعلمت أن تتعايش معه دون أن تفهمه تماما ... الخطب هو أن يركض بك العمر في الاتجاه المعاكس نحو نقطة البداية لتطرح السؤال الأكثر بديهية في الحياة.

قالت بصوت غائب كأنها بدأت تفهم أو كأنها تخشى أن تفهم ما أرمي اليه :

- أي سؤال؟؟

قلت و أنا أوجه نظري الى عينيها :

- من أنا ؟؟؟

تغير لونها و خارت قواها فألقت بثقلها على كرسي خلفها, لا تكاد تصدق بأن الحياة حشرتها في مواجهة الموقف الذي كانت تتحاشى الاصطدام به ,هكذا دون سابق إنذار , حتى أنها لم تسألني كيف عرفت , قالت بمشاعر لا أشك في صدقها

- أنت ابنتي

لكني حشرتها مجددا :

- عدا ذلك؟
- عدا ذلك لا أحد يعلم , نحن أهلك و لست بحاجة لمعرفة أشخاص تخلو عنك

لم تقصد أن تزيد من وجعي حين صرحت بأن أهلي تخلو عني و بأني في الواقع من مجهولي النسب , لعل هذا بالذات ما كنت أخشى سماعه.

صعدت الى غرفتي لأكمل ما تبقى من جحيم تلك الليلة بمفردي بعدما أفقدني جوابها الأخير الرغبة في معرفة أي شيء آخر .

في صباح اليوم التالي تحدثت الى والدي مطولا , ظل يحاول تقديم مبررات لم أكن بحاجة اليها فأنا لا يمكن أن أشك و لو للحظة في صدق نيتهما بعد عمر طويل أفنياه في خدمتي .

استطاعت سنواته السبعون أن تجرني لأقطع عليه وعدا باغلاق هذا الملف للأبد , كان يخشى عليّ من حطام يصعب ترميمه , طلب مني أن أركز فقط على دراستي خاصة و أنه لم يتبق على تخرجي سوى أشهر قليلة و هو اليوم الذي طالما انتظرناه .

لكن هل كان بإمكاني غلق ملف تلك القضية حقا؟ أن أرمي به في درج خزانة قديمة كما يفعل عصام مع أغراضه؟

حاولت أن أنسى أو أتناسى , قررت أن أستغل ساعات الليل الطويل في اعداد مذكرة تخرجي , أن أغوص بين الدفاتر و الأوراق حد الغرق , أن أتجرع الشاي حد الثمالة لأسهر طويلا ثم أستسلم للنوم فلا أترك مجالا لوحشة الليل أن تستفرد بي , كانت تلك طريقتي في الافلات من قبضة الأسئلة التي تحولت شيئا فشيئا لشبح يتربص بي كلما أويت الى فراشي , شبح مرعب يتحين الفرصة ليسيطر على تفكيري .

من أنا ؟ أي دم هذا الذي يجري في عروقي ؟ لماذا تخلت عني و نحن في مجتمع أوروبي ما كان ليرفضها حتى و ان كانت أما عزباء؟ ربما عادت للبحث عني و لم تجدني ! ان وضعنا هذا الاحتمال محمل الجد فهل يجدر بي الآن و قد عرفت الحقيقة أن أبحث عنها ؟ يا الهي شبح الأسئلة يطاردني , حتى أني بت أتحاشى النظر في المرآة فمنذ ذلك اليوم لم أعد أراني بل صرت أراهما من خلال ملامحي , صرت أسمع صوتهما من خلال خامة صوتي , هذا الشعر الأشقر الذي أوهموني أني ورثته عن جدتي لم يكن كذلك حقا ! كم كان من السهل خداعي ! ذلك أني وكأي فتاة ساذجة في هذا العالم لا يعنيها من المرايا سوى زينتها , هذه المرآة الصامتة على مدى سنوات كانت تعكس الحقيقة التي أخفوها عني و التي لم أكلف نفسي عناء اكتشافها, بل انها الحقيقة الوحيدة في حياتي ! كم أتمنى لو أستطيع استنطاقها, لو أستعير تلك المرآة السحرية من الملكة في أسطورة بياض الثلج لا لأسألها عن صاحبة أجمل وجه فقد فاتني ذلك الزمن الجميل , بل لأسألها لمن تعود هاته العينين؟ و لمن هذا الشعر؟

"مجهول النسب " و هناك من يدعوه "باللقيط" كما ليضيفها تابلا يعزز نكهة المهانة التي تلبست حياته منذ أول يوم , هو الذي يحمل على

جبينه وصمة عار تركها والدان لم يرقيا لمستوى الانسان , يعاقب كأنه الخطيئة الوحيدة في مجتمع مثالي بينما هو البريء الوحيد في مجتمع ملطخ بالخطايا .

هو ذاك الذي عثر عليه مرميا على قارعة احدى الطرقات أو في حاوية القمامة يبحث بشفتيه الصغيرتين عن نهد أم تروي ظمأه أو أب يهرع اليه ليصد عنه كل ما يتربص بجسده الصغير من أذى فأين أنت يا نبع الحنان؟ و أين أنت يا مرتع الأمان ؟

أو أنه و في أحسن الأحوال يترك ليسجل على قائمة مجهولي النسب في احدى المستشفيات لتتكفل المؤسسة الاستشفائية بالنظر في مصيره .

عادة ما يرسل هؤلاء الأطفال الى دور للرعاية الاجتماعية هناك حيث سيكون رقما جديدا بين مئات الأرقام التي اجتمعت في سجل واحد على قدر واحد مهما اختلفت الأسباب .

ينظر الشارع عادة لمجهول النسب على أنه ابن غير شرعي بينما قد يكون ابنا شرعيا تخلى عنه والداه لظروف اجتماعية أو نفسية استثنائية و أحيانا يكون المتخلي هو الأب فقط بينما تحتفظ الأم بصغيرها و هو ما نراه كثيرا في المجتمعات الغربية و ناذرا في أوطاننا العربية فالأم العزباء في أوطاننا حتما ستجد نفسها ملقاة في الشارع منبوذة من أقرب الناس اليها هي و صغيرها.

تتكفل دور الرعاية بتوفير الحد الأدنى من متطلبات الحياة الكريمة لهؤلاء الأطفال من مأكل و ملبس و تأمين صحي و تعليم و غيره و كذا ما يدعى بالأم البديلة , كما تتكفل بمنح هؤلاء الأبرياء شهادات ميلاد مؤقتة و

بطاقات هوية بأسماء وهمية و تواريخ ميلاد حقيقية أو تقريبية مع عدم الاشارة لكون صاحب البطاقة مجهول نسب لتيسر له فرصة الانخراط في شتى ميادين الحياة دون أن تحمله مهانة نظرات تتأرجح بين الشفقة و الاحتقار , لكنها قد تعتمد "كودا" لا تفهمه سوى الجهات رسمية أو لون بطاقة مغاير و ذلك لتفادي وقوع أي لبس في حال تشابه الأسماء الوهمية بأخرى حقيقية .

كما تهتم وزارة الشؤون الاجتماعية بتوفير أسر حاضنة لمن يحالفهم الحظ وفق شروط و معايير صارمة لتتيح للطفل فرصة أن ينشأ داخل جو أسري دافئ يساعده على تكوين شخصية متوازنة بقيم نبيلة و هو ما تعجز أغلب دور الرعاية عن تحقيقه

" الأم البديلة" مصطلح يطلق على الموظفة التي تقوم على شؤون الأطفال في دار الأيتام و التي تلعب دور الأم لهم رغم استحالة مهمتها في أغلب الأحيان كونها تحمل على عاتقها مسؤولية العديد من الأطفال في الوقت ذاته ما يجعلها في مهمة مضنية خاصة و أنها ملزمة على قضاء معظم أيام الأسبوع داخل الدار لا تغادرها الا في أيام العطل أو في أوقات متأخرة من الليل ما يشكل عبئا ثقيلا عليها و هو ما يدفع كثيرا من الموظفات لتقديم استقالتهن ما قد يشكل صدمة حقيقية للطفل الذي سيشعر للمرة الثانية أنه منبوذ أو غير مرغوب فيه كما أنه قد يتمرد على الموظفات الجدد و يرفضهن لتعلقه بالموظفة الأولى .

حين يصل الشاب أو الفتاة لسن الرشد القانوني سيظطر لمغادرة الدار ليترك مكانه لطفل آخر , ليجد نفسه بعدها وحيدا في مواجهة حياة محفوفة بالمخاطر و مع الحقد المكبوت داخله لعدة سنوات اتجاه

مجتمع جعل منه مواطنا من الدرجة الثانية يمحقه بنظرات تتسم بالدونية رغبته بالانتقام ستجعل منه لقمة سائغة لعصابات التجارة بالمخدرات أو الأعضاء البشرية أو دور الدعارة ليتحول بذلك من ابن للدولة الى مدفع في وجهها.

كنت قد نزلت يومها لاقتناء ثوب لحفل تخرجي , كان الطقس باردا , كئيبا , لا يبرر اصراري الغريب على الخروج دون سيارة أنا التي كنت أتدمر من اهدار الوقت في محطات الانتظار و في زحمة السير , كأن اهدار الوقت لم يعد هاجسي فجأة ولا حتى زحمة السير صارت تضايقني فالتدمر من تلك العراقيل الصغيرة ترف لم يعد في متناولي منذ اليوم الذي انتقلت فيه الزحمة الى رأسي , مذ تحول الوقت لمركب يتنقل بي من جحيم سؤال لآخر و من محطة خيبة لأخرى , أصبحت أفضل السير على قدميّ مذ صار للوقت عجلات مخيفة تهوي بي من منحدر لآخر و مذ أدركت أن للعمر عجلة لا علاقة لها بعجلة الزمن, عجلة غدارة قد تنزلق بنا الى أردل العمر باكرا جدا.

لا أذكر من الذي قال أن الانسان يشيخ فجأة اذا ماتت أمه , أين هو لأسأله عما يحل بمن لا أم له ! ثم أي خيانة هذه أن أشعر فجأة أنني بلا أم أنا التي قضيت عمري في كنف أم ترعاني , أ يحدث أن يصبح القلب جاحدا الى هذا الحد ؟ أن يبكي بحرقة يتمه , ذاك الذي لم يسمع عنه قبل الآن ! تراني كنت أفتقدها دائما في قرارة نفسي دون أن أدرك؟ كنت أفتقد صوتها الذي ألفته و أنا في جوفها ثم اختفى بعد ذلك للأبد ! ؟ تراني كنت مهيأة لحزن كهذا منذ البدء !

كنت أتسكع في شوارع مرسيليا , مرسيليا التي أعرفها كما لم أعرف مدينة من قبل , كانت أمي الحاضنة هي الأخرى في ظل بعدي عن مدينتي الأم بالجزائر , مدينتان كانتا كل ما أحببت من الأوطان , كانتا تاريخي و هويتي , لم أعد أعلم من منكما منجبتي , من منكما حاضنتي , أي الأوطان موطني ! ما يرعبني حقا هو أن أكتشف يوما أنني لا أنتمي لأي منكما , ما يرعبني هو أن أتعرى من هويتي , أن تتبرأ كلاكما مني , أن أجدني فجأة أنتمي لمدينة أخرى لا أعرف لها مذهبا ولا حضارة

تراك تسكنين هذه المدينة أيضا ! سؤال لم يخطر ببالي قبل الآن , تراك تحبينها أيضا ! أيعقل أن طرقنا قد سبق و تقاطعت في أحد شوارعها دون أن ندري تماديا في سخرية الحياة من قدرنا ! تراك أصبحت أما لابنة غيري ! أعطيتها اسما كان يفترض أن يكون اسمي ! قدمت لها كل شيء كان من حقي ! تراها تشبهني ! ألهذا ظننت أن الله غفر لك حين رزقك ابنة أخرى بملامحي لتغرقيها في ينابيع الأمومة التي فجرتها أنا داخلك !

كنتُ عالقة في زحمة الأسئلة التي لا تقودني في النهاية الا لأسئلة أكبر و أعمق .

وصلت الى المركز التجاري , رحت أتجول بين المحلات , أبحث عن ثوب لم أرسم له صورة في رأسي , اكتفيت بأن أضع له حدودا تناسب جيبي و مبادئي لا غير , أي ثوب سأختار و أي لون هو الأنسب لفتاة جردتها الحياة من زينتها حين أزالت في تلك الليلة كل مساحيق التجميل التي وضعوها لاخفاء وصمة العار التي تلتصق تلقائيا بجبين كل من لا نسب له, أردته زاهيا على غير العادة ليموه عن بهجتي المنطفئة على غير العادة أيضا .

اعترضني عند واجهة احدى المحلات , فستان طويل ناعم , أرجواني اللون مطرز بخيوط ذهبية رفيعة عند الخصر , لم يكن ذوقي المفضل , كنت أحب هذا اللون على الأزهار فقط , لكني أخدته فنحن لا نقتنِ بالضرورة ما يعجبنا بل ما يكملنا .

ثم أني كنت أدري أن لهذا اللون تاريخا فريدا يميزه عن أي لون آخر فقد كانت له فخامة جعلته يرتبط بالملوك و النبلاء على مر العصور , كان حكرا على طبقة معينة من المجتمع حتى أن الملكة اليزابيت الأولى منعت أي شخص من ارتداء هذا اللون باستثناء أسرتها الحاكمة ذلك لندرة صبغته آنذاك و التي كان يأتي بها تجار من مدينة صور (جنوب لبنان) منذ عهد الفينيقيين اذ كانوا يستخرجونها من قواقع بحرية صغيرة و غير موجودة في أي مكان من العالم , ثم ان استخراجها كان صعبا لدرجة أنهم كانوا يحتاجون ل10.000 قوقعة لاستخراج غرام واحد من هذه الصبغة و التي لم يقدر على تكاليفها سوى الحكام في مصر و روما و بلاد فارس , و لم يصبح هذا اللون متاحا لعامة الناس الا منذ عام 1856 حين قام الكيميائي ويليام هنري بيركين أثناء محاولته صنع علاج للمالاريا بصنع مركب بنفسجي بالصدفة و لاحظ أنه يمكن استخدامه في صباغة القماش و أخد براءة اختراع عليه , ثم بدأ بتصنيعه على نطاق واسع و أصبح فاحش الثراء بسبب هذه الصدفة !

يا لها من سخرية ! أن أستعين بثوب لأصطنع بهجتي تماما كمن يستعين بسجارة ليصطنع رجولته , بينما لم تكن هاته السلوكات في الواقع سوى اعتراف باذخ بالعقدة التي تسكننا , تراني أصبحت أعاني من أزمة ثقة !

ترى مكانتي هي ما اهتز في نفسي و لهذا وقع اختياري على هذا الفستان الملكي لأتوهم أني استعدتها !

ربما لم يكن ذنبنا أن لجأنا الى المظاهر في بلد يتربع على عرش الأناقة و يجعل للموضة ماركات و عناوين تطرق من كل ناحية و صوب .

وقفت أتفقد ما بقي بحوزتي من نقود حين جاءني اتصال من عصام

- كيف أنت؟
- بخير
- أسمع ضجيج سيارات , هل أنت في الشارع؟
- أجل
- آمل أنك بدأت تتجاوزين ما حدث
- ربما
- لِمَ لا تتحدثين بوضوح ؟
- أليست هذه طريقتك في الإجابة ؟
- تنتقمين مني اذن؟
- لنقل أني أصبحت أفهمك أكثر
- و ماذا فهمت؟

- فهمت أنه كلما زاد عمق الجرح بداخلنا كلما قلت رغبتنا بمشاركته مع الآخرين , نحن لا نشارك في النهاية سوى مشاعرنا السطحية
- حسنا.. ما رأيك في المجيء لزيارتنا؟
- ليس اليوم

أضاف كما ليغريني :

- لقد أعدّت والدتي صينية بقلاوة و سنحضر الشاي بالنعناع كما تحبينه بالضبط, أنصحك بالمجيء

أفكر قليلا :

- حين تناديك رائحة الوطن لن تدع لك مجالا للرفض , سآتي

نظرت الى السماء الملبذة بغيوم سوداء كثيفة تنذر بعاصفة رعدية وشيكة .

وقفت في احدى المحطات أنتظر مرور سيارة أجرة حين توقفت أمامي حافلة كبيرة كتب عليها " دار الايواء و الرعاية الاجتماعية" نزل منها عشرات الأطفال يتدافعون ,يحملون على أكتافهم حقائب صغيرة كأنهم عائدون من رحلة ما, لم أنتبه قبلها الى أني أقف بالقرب من دار الايواء خاصتهم.

انتابني فضول للتقرب منهم , وقفت على مقربة من تلك الجدران الخراسانية العتيقة أتأملهم واحدا واحدا و هم يدخلون المبنى , هنا على مسافة أمتار وقفت أتأمل مأساة ليست سوى مأساتي , داخل هذا المبنى البائس أو مثله كادت تكتب قصتي , القصة التي لن يقرأها أحد , مجرد رقم بين مئات القصص التي و ان اختلفت فصولها يجمعها عنوان واحد.

تذكرت موعدي مع عصام فهممت بالمغادرة لكني و لسبب ما لم أفعل, اشتريت بعض الهدايا من محل قريب بما تبقى لي من نقود ثم طلبت إذنا بالدخول , كانت تلك هي المرة الأولى التي أزور فيها دارا للإيواء ,

دخلت الى احدى القاعات أين اجتمع الأطفال على نشاطات مختلفة رفقة مشرفات تربويات , حاولت التقرب منهم , بعضهم أسرع اليّ ليأخذ هديته و بعضهم لم يعرني أي انتباه , تحدثت مع احدى المشرفات و كانت شابة ثلاثينية تبدو علامات الارهاق على وجهها , حدثتني عن ساعات العمل الطويلة التي تقضيها داخل الدار و عن مدى صعوبة هذه المهنة ذاك أن الأطفال بحاجة لكثير من الرعاية بدءا بالنظافة الشخصية الى متابعة شؤون تعليمهم و نشاطاتهم المختلفة و كذا احتياجاتهم العاطفية مشيرة الى أن هناك منهم من يعاني أزمات نفسية تجعل سلوكه متمردا و عدوانيا في كثير من الأحيان و هناك أيضا من يعاني من اعاقات جسدية أو عقلية و هم الشريحة الأصعب على الاطلاق خاصة ممن تكون اعاقتهم ذهنية لما يحتاجونه من مجهود مضاعف و من رقابة مستمرة خشية إيذاء أنفسهم أو غيرهم ,ثم انهم الفئة الأكثر تهميشا من المجتمع اذ نادرا ما ننجح في العثور على أسر تقبل باحتضانهم , ثم قالت

بابتسامة تملؤها الحسرة "هنا كلما زاد الطفل وسامة و عافية كلما زاد تهافت الأسر عليه"

لفت انتباهي عند زاوية القاعة طفل في العاشرة من العمر , هزيل الجسم , أسمر البشرة , بعينين غائرتين و شعر كثيف مموج , كان يجلس وحيدا الى مائدة صغيرة يضع عليها أوراق رسم و أقلام تلوين , كان منهمكا في الرسم لدرجة أنه لم يلحظ وجودي

أردت افتعال حديث معه, قلت :

- مرحبا

رفع رأسه ليرمقني بنظرة خاطفة ثم عاد لرسمه , يبدو أنه لم يستلطف وجودي أو أنه لا يحب التحدث مع الغرباء , أردت تلطيف الجو :

- أنت فنان اذن؟ هل تخبرني عما ترسم؟

قال و هو يشير الى الصورة :

- هذا أنا, و هذا صديقي مارك

كان قد رسم طفلين يمسكان بيدي بعضهما , أحدهما بشعر أسود كثيف و آخر بعينين ملونتين و شعر أشقر ناعم

سألته :

- و أين هو مارك الآن؟

أجاب بنبرة حزينة :

- لقد أخدوه
- و من الذي أخده؟
- أخدته سيدة و زوجها قبل أسبوع , لقد تبنياه

ثم قال و كأنه يواسي نفسه :

- لكنه وعدني بأن يأتي لزيارتي ,سأقدم له هذه الصورة عندما يأتي

سألته :

- أ ليس لديك أصدقاء غيره؟
- انه صديقي الوحيد , كنا نأكل معا و نلعب معا و نتشارك أغراضنا و ثيابنا كي لا يسخر منا أصدقائنا في المدرسة

تجمعت في حلقي أكثر من غصة , وضعت حقيبتي على الأرض و جلست الى جانبه أصغي اليه و هو يحدثني عن صديقه و أستدرجه لمزيد من البوح , كنت أرغب بمساعدته بطريقة ما و لذا كنت أستدرجه لأعرف ما الذي من شأنه أن يعيد البسمة الى وجهه البريء

سألته :

- ما اسمك؟
- اسمي دانييل

- قلي يا دانييل هل تحب أن يكون لك عائلة مثل مارك؟
- و هل هذا ممكن؟
- طبعا , لِمَ تظن أنه غير ممكن !
- لأنهم لا يأخذون سوى الأطفال الوسيمين ذوي البشرة الفاتحة و الشعر الناعم

فاجأني كلامه ! لم يكونوا أطفالا بل أكثر , كانوا جراحا تمشي و تتنفس بملامح بشرية , اليتم كما الحرب تكبر و في يدك بدل اللعبة سلاح تقاتل به من أجل كرامتك , اثر كلمات ذلك الصغير بكت الطفولة و بكت الانسانية

كان ممتلئا بغضب مكبوت و حزن مكابر ترجمته ردود فعله الباردة اتجاه مجتمع أوصد الأبواب في وجهه هو الذي كانت أقصى أحلامه أن يعيش في كنف أسرة تكفله ,مجتمع يتظاهر و يرفع شعارات تدافع عن حقوق الانسان و يغضب و يثور عند كل حادثة عنصرية تخرج للاعلام أليس هو نفسه من يمارس العنصرية بأبشع أشكالها من خلف الكواليس كان يشعر بمهانة التمييز بينه و بين أطفال آخرين ,كم كان الموقف ساخرا أن يشكو جرحه لي أنا ! ألست أنا هي تلك الفتاة الشقراء التي دفعت جمالها تذكرة عبور لتعبر الى الضفة الأخرى حيث الحياة أكثر دفئا و كرامة !

ماذا كان يجب أن أقول ! كيف سأواسيه اذا كنت أنا مع كل الحظ الذي كان الى جانبي لم أستطع مواساة روحي

و لا التغلــب عــلى الاحبــاط الــذي صــار رفــيقي أينمــا ذهبــت .
قلت :

- أتدري ! عندما كنت في مثل سنك كنت أمقت شعري الأشقر ولون بشرتي الفاتح
- غريب ! لماذا ؟
- لأن الأشخاص الذين أحبهم كانوا مختلفين عني
- كانوا يشبهونني ؟
- أجل , الى حد ما كانوا يشبهونك و كنت أتمنى لو كنت مثلك لأشعر أني منهم , اسمع .. نحن لا نحب شخصا لأنه جميل لكننا نرى الشخص جميلا عندما نحبه و عندها سنرى أي شخص يشبهه جميلا .

كان يستمع الي بدهشة من يسمع كلاما لأول مرة , كان يحاول استيعاب ما أقول

- هل تعتقدين أني سأجد أشخاصا يشبهونيلأعيش معهم ؟

- اسمع .. ان أكبر خطأ نقترفه في حق أنفسنا هو أن نعيش على انتظار حدوث أمر ما بينما يجدر بنا أن نتعلم كيف نسعد بما بين أيدينا الى ذلك الحين .

كنت أرغب بمساعدته بطريقة ما , سألته :

- هل تحب الرسم ؟
- طبعا .. انه هوايتي
- ممتاز , لو تقبل صداقتي سأساعدك على الالتحاق بمعهد لتعليم الرسم كما أني سآتي لزيارتك باستمرار و سأصطحبك لتزور أماكن ستحبها كثيرا , ما رأيك ؟
- حقا ! هل سنذهب لزيارة مارك أيضا ؟
- سنذهب لزيارته بالطبع
- يالروعة , شكرا لك

كنت أدري أن أفضل ما قد تقدمه لطفل في عمره هو التقدير , أن تجعله يقدر ما لديه لأن شخصا لا يقدر ذاته ستهزمه الحياة حتما .

لم يكن دانييل هو الوحيد الذي تعرفت اليه ذلك اليوم فبعده قابلت أطفالا آخرين لم يكونوا أحسن حالا منه , تساءلت يومها أي طفرة تلك

التي تستطيع أن تجرد رحما من أسمى معاني حروفه "الرحمة" ليلفظ بهم بين أحضان البؤس و الشقاء بهذه القسوة ! أطفال ينظرون اليك على أنك قادم من العالم الآخر , العالم الذي تتذمر منه كل صباح و يحلمون بالانتماء اليه .

هذا العالم على رداءته ألم يحمل اليك اسما و نسب؟ من سهر من أجلك و تعب ؟ من راقب و كتب تاريخ أول خطوة خطوتها , أول كلمة لفظتها , أول سن نبت لك , من كرس حياته لرعايتك , من احتفل معك بيوم ميلادك بينما لا يعرف هؤلاء الأطفال ان كان ذلك المدوّن على سجلهم تاريخا حقيقيا أم تقريبيا, لا يعرفون طعما للعيد , أوليست الأم هي العيد !

لا أنكر أن زيارتي لدار الايواء ذلك اليوم تركت أثرا بالغا في نفسي و أعادتني لواجهة الطريق الذي كنت أتحاشى السير فيه , أنا لست عصام و ليس من عادتي التملص من واقع مر أعيشه فالواقع سيطاردني حتما أينما ذهبت و سأسمع عنه و أراه دائما من خلال قصة مشابهة أو صورة ما أو حتى كلمة , أيقنت أن الشجاعة الحقيقية هي أن تتقبل نفسك كما أنت , أن تخرج للعالم و تقول هذا أنا بماضيّ و حاضري ,بنجاحاتي و اخفاقاتي , بجميع انكساراتي

ألم يكن ستيف جوبز صاحب التفاحة التي غيرت العالم ذلك الولد الذي لم يحتفِ بقدومه أحد بعدما عارضت الأسرة الكاثوليكية لوالدته زواج ابنتهم من شاب من أصول عربية مسلمة هو عبد الفتاح الجندلي و كانا لا يزالان طالبين جامعيين آنذاك فقاما بالتخلي عنه بعرضه للتبني على أسرة حمل اسمها و اشتهر به فيما بعد .

ستيف الذي قال للعالم هذا أنا بعبقريته الفذة و انجازاته التاريخية التي أحدث بها ثورة حقيقية في عالم التكنولوجيا أجبر العالم كله على الاحتفاء به و تمجيد اسمه بما فيهم والده البيولوجي الذي كان يحلم بارتشاف كوب قهوة رفقة ابنه الأمر الذي لم يتحقق .

* * *

كان المطر قد بدأ يهطل بغزارة حين وصلت الى منزل عمتي التي كانت مشغولة بتزيين صينية الشاي بأوراق النعناع الذكية و كوب الشاربات المصنوع من الماء و السكر و المسك و ماء الزهر بجانب طبق البقلاوة الشهية المحشوة باللوز و الفستق.

خلعت حذائي الملطخ بالوحل عند الباب و علقت معطفي على المشجب, شعرت بشيء من الاحراج لقدومي بيدين فارغتين بعدما أنفقت ما بقي بحوزتي من نقود على هدايا الأطفال , دخلت فارغة اليدين محملة بأشياء أخرى , و بعقلية جزائرية لا تمانع من تسبيق اللوم على الترحيب قالت

- عاش من شافك يا ابنتي ,أهلا بيك

قلت مجاملة و أنا أطبع قبلة على خدها

- أهلا عمتي, تبدين جميلة و نشيطة كعادتك ,أكل هذا لأجلي؟

قالت و هي تضحك

- ما يليق بحضرة الغالي الا الغالي و أنت تعرفي مليح بلي غلاوتك من غلاوة عصام ولدي

كنت أستعيد معها ذكريات افتقدتها و لهجة لم أتحدث بها منذ زمن , منذ زيارتي الأخيرة للجزائر قبل سنتين , هذه الصينية الدائرية النحاسية ذكرتني بصينية عيد الفطر المبارك التي تضم أنواعا مختلفة من الحلويات التقليدية الى جانب ابريق و فناجين القهوة تعدها النساء صبيحة العيد مرتديات زينتهن و منتظرات عودة أزواجهن من صلاة العيد , كنت أستعيد لكنة تفوح بأذكى عطر من تراب شرق الوطن و هي تقول "صحة عيدك" و تتبعها بعبارات تحمل أمنيات ك "تعيدو و تزيدو" كدعوة للتفاؤل بطول العمر و الاحتفال بالأعياد كل سنة, و من ثم تبادل الزيارات بين الأقارب و الأصدقاء و التي تسمى "زيارة التغافر" أي أنها فرصة للتسامح و طلب المغفرة بين المتخاصمين , أكاد أسمع تلك الأغنية الشعبية التي تتردد في كل بيت صبيحة يوم العيد و التي تقول "مزينو نهار اليوم صحة عيدكم" أي ما أجمل نهار اليوم , عيدكم مبارك

ما كان يمكن أمام سفرة كهذه أن أتحدث بغير العربية , تناولت قطعة بقلاوة ثم قلت:

- اذن , هذا هو الغالي الذي يليق بحضرة الغالي ؟
- طبعا , فالبقلاوة من الحلويات الملكية و لها تاريخ عريق فقد كانت ملازمة لمجالس السلاطين في القصور العثمانية و قد دخلت الى الجزائر مع دخول العثمانيين مطلع القرن السادس عشر , انها جزء لا يمكن فصله عن تاريخ الامبراطورية العثمانية
- هي كلمة تركية اذن؟
- يقال أن أصل تسميتها يعود لسلطانة كانت ماهرة في فن الطبخ ,كانت تدعى بقلاوة و هي أول من ابتكر هذه الحلوى
- جميل !
- عصام لا يحب هذا النوع من الحلويات المعسّلة
- عصام يفضل الحلويات الغربية ..بالمناسبة كيف حاله؟
- كما هو يقضي جُل وقته مع الحاسوب وحيدا في غرفته

كنت على وشك قول شيء ما عندما دخل عصام علينا

- كأني سمعت اسمي ,تتحدثان عني؟

قلت :

- ننتظرك لتشاركنا هذه السفرة الجميلة

قال متهكما و هو يسحب كرسيا و يجلس بجواري

- سأكتفي بكوب شاي ساخن أما أنت فأظنك تخططين لكسب مزيد من الوزن
- مستفز لعادتك

تبادلنا أطراف الحديث , كان عصام قد أخبر عمتي عما حدث في ذلك اليوم فعبرت لي عن أسفها لأني عرفت الحقيقة بتلك الطريقة الغريبة , قالت أنها كانت تحتفظ بالCD بطلب من أمي التي خشيت على ما يبدو أن يخطفها الموت قبل أن تعترف لي بها , كنت أدري أن والديّ في الواقع لم يمتلكا الجرأة الكافية لمصارحتي و أني في النهاية ما كنت لأعرف الحقيقة الا عن طريق المصادفة

قلت :

- حسنا, بما أننا اجتمعنا اليوم دعاني أخبركما عن قرار مهم اتخدته , أعلم أن قراري سيفاجئكما لكنه الحل الوحيد لأرتاح من جحيم الأفكار التي أرهقتني ...لقد قررت البدء في البحث عن والديّ البيولوجيين

كان قراري صادما بالنسبة لعمتي ,ظلت صامتة لبعض الوقت ثم قالت

- هل يعلم والداك شيئا عن هذا القرار؟
- لا, لا يعلمان ,أريد أن أبقي الأمر سرا بيننا , كما أني أحتاج مساعدتكما , أريد معرفة أي خيط يربطني بالماضي , أي شيء يمكنني البدء منه
- كل ما أعرفه هو أنهم أحضروك من دار للأيتام هنا بمرسيليا , كنت في شهرك الثالث ..يمكنك أن تسألي هناك لاشك أنهم يحتفظون بالسجلات القديمة في الأرشيف
- هل تظنين أني قد أجد لديهم ما يهمني؟
- لا أدري, جربي, قد تجدين طرف خيط على الأقل

قال عصام :

- لا أفهم لِمَ لا تريدين اخبار والديك , ربما بامكانهما مساعدتك
- أنا أعرفهما جيدا , من الصعب أن يتفهما الأمر , قد يظنان أنني أنوي التخلي عنهما أو ما شابه, أنا أريد منك أنت أن تساعدني
- ماذا !أنا أساعدك ! أنت تمزحين ..تعلمين أني لا أخرج كثيرا و ليس لدي علاقات
- فلتفعل اذن لأجلي و لأجل والدتك و لأجلك أنت

- تحاولين الضغط عليّ مجددا , أهي حيلة جديدة؟
- ليست حيلة و لا أحاول الضغط عليك , لم تعد لدي طاقة لأفعل ذلك , أنا حقا بحاجة الى المساعدة, ثم لازلت أأبى أن أصدق أنك بهذا القدر من الهشاشة , وفاة شقيقك في ذلك الحادث كان قدرا , الجرم الوحيد الذي اقترفته في حياتك هو هذا الذي تفعله بنفسك

ظل صامتا يحتسي كوب الشاي ببرودة أعصاب أما أنا فبتلك الكلمات المقتضبة أنهيت نقاشا حكم عليه بالعقم منذ زمن , قررت أن أمضي في الأمر بمفردي و أن أكون أنا عكازي الوحيد , قمت من مكاني , كانت الرياح تعصف بشدة , شعرت برغبة في التفرج على الطبيعة و هي تعبر عن غضبها كأنها تعبر عن غضبي! كأنها نسخة مكبرة عن عواصفي السرية , كم أحسدها لأنها الوحيدة من لديها الحق في أن تثور كيفما شاءت دون أن يحاسبها على ذلك أحد, ألقيت نظرة من الشباك ففوجئت بحبات الثلج المتساقطة في صمتها البديع

«يأتي الثلج صامتا كأشيائنا العميقة لا يسمع لها صدى بينما يأتي المطر بضجيجه المدوي ككل الأشياء الخفيفة » مثل ألماني

كان الشارع خاليا من المارّة الا من البعض من أصحاب الاعاقات العقلية الذين هم قدر كل مدينة في العالم و الذين لم يسرعوا للاحتماء من العاصفة كأن أمرها لا يعنيهم تماما أو كأن لهم منطق مغاير في الحياة ! طالما روادني الفضول للتقرب منهم , لمعرفة سرهم ,أشعر أن خلف كل

واحد منهم قصة كبيرة و كبرياء مهيب فكما أن المرء قد يخسر قلبه ازاء علاقة فاشلة فهو قد يخسر عقله ازاء قضية فاشلة ,أدري أن للعقل كرامة كالقلب تماما و أن المرء قد يسرف في العطاء الى حد سيعتبر بعده الخسارة اهانة شنيعة لا يعود بعدها كما كان .

تلقيت اتصالا من أبي يلومني فيه على خروجي دون سيارة في جو كهذا لا يعلم أنني خرجت دون مظلة أيضا و أني لم أبق بجيبي فلسا واحدا لأعود الى البيت , طلبت منه أن يأتي لاصطحابي , كنت أعيش حالة من الفوضى تجعلني أتصرف دون منطق في كثير من الأحيان .

* * *

مر أسبوع كنت قضيته في التحضير ليوم تخرجي , صرت أستعجل الفراغ من هذا الموضوع منذ امتلأت بالآخر كأنه صار يثقل عليّ فجأة , لعل هذا بالذات ماكان يخشى والداي حدوثه , كنت أحاول أن لا أشعرهما بالفتور الذي أمر به ليس في دراستي فحسب بل في حياتي كلها,فاجأني اتصال غير منتظر من عصام ذات صباح عندما كنت منهمكة في اعداد مذكرتي يبلغني فيه أنه عدل عن قراره بعدم مساعدتي ,انتفضت من مكاني غير مصدقة لما أسمع :

- كيف و متى و من الذي أقنعك ؟

سألته و أنا أجمع أوراقي المبعثرة على الطاولة أمامي

- ليست قناعة لنقل أنه الضمير , من الصعب أن تكوني بمفردك في أمر كهذا

سألته :

- أنلتقي اليوم ؟
- فليكن , سأكون بانتظارك أمام المنزل بعد نصف ساعة

نصف ساعة ! لا أدرِ لم هم الرجال دوما على عجل !

قلت :

- حسنا , اتفقنا

جمعت أغراضي بسرعة ثم اتجهت الى الحمام لأضع شيئا من الترتيب على هيأتي , فتحت خزانتي لأقف محتارة أمامها كما أفعل كل يوم قبل أن أختار ثيابي .

شعور بالذنب أثقل خطاي فجأة و أحبط عزيمتي بعدما تذكرت وعدا قطعته على أبي ذلك اليوم بعدم الخوض في هذا الموضوع , ها أنا ذي أضرب موعدا معه ! بيدي و بكامل ارادتي أشتري تذاكر خيبتي و أحجز لحياتي مقعدا على ضفاف الأسى , لم يكن لدي خيار آخر فدخان الشك أكثر ايلاما من لهب اليقين ذلك أن اللهب سيحرقك مرة واحدة لتموت بعده أو تتعافى أما دخانه فسيظل يخنقك مدى الحياة,أكان جحودا مني

أن لا أخبرهما بقراري ؟ من الذي سيفهم ؟ من سيفهم أن بعض الجراح تلتئم بالضغط عليها لا بتجاهلها و مع ذلك لا أنكر أن اخفاء الأمر بهذا الشكل ألبسه ثوب الخيانة .
خرجت من المنزل تاركة خلفي وابلا من المشاعر المتضاربة حين وصل عصام بسيارته ركبت الى جانبه , كان يلف وشاحا حول عنقه يغطي جزءا من وجهه مداراة لعاهته عن الأنظار , لم أعلق على الأمر قلت له فقط بأني سررت لرؤيته في حال أحسن و أني أقدر الخطوة التي قام بها لأجلي , كنت أفهمه جيدا هو الذي لم يتحمل رؤية جرحه بعينيه كيف له أن يتحمل رؤيته في أعين غيره ! قال لي ذات يوم أنني الشخص الوحيد الذي لم ينظر لعاهته يوما و هو يكلمه, كان يقدر لي ذلك جدا .
سألته ان كانت عمتي قد تذكرت أي شيء جديد بخصوص قضيتي :

- لا و لكن لا تقلقي , نحن سنذهب الى دار الايواء و نتحرى بأنفسنا
- هل تظن أنني سأجد لديهم ما يهمني؟
- حتى و ان لم نجد سنطلب اسم الأم البديلة التي كانت تشرف على رعايتك هناك علينا أن نصل اليها ربما تعرف شيئا ما
- هل تظنها ستذكرني بعد كل هاته السنوات ؟
- لنأمل ذلك..أتحملين معك صورة لك و أنت رضيعة في حقيبتك؟
- ليس في الحقيبة , أحمل صورا في هاتفي

- مبدئيا هذا جيد

وصلنا الى دار الايواء , قبل أيام دخلت من هذا الباب محملة بهدايا الأطفال , هو ذات الباب الذي اجتزته قبل سنوات محملة بوزر خطيئة لم تكن خطيئتي و ها أنا أعود اليه اليوم محملة بالقهر و بالخيبة و بأشياء أخرى لا أعرف كيف أصفها , بعد اليوم الكلمة ستكون كلمتي أنا فالخطيئة لا تصحح بخطيئة أخرى و الوزر لا يحمل لغير صاحبه و الا فخطيئتك ستعود اليك حتما ..ستأتيك سيرا على الأقدام ..ستقف أمامك وجها لوجه ..قنبلة صنعتها بيديك لتنفجر في وجهك و لن تبالي بل و ستحرقك و ستتلف كل ما سعيت لحمايته منها كل تلك السنين.

طلبنا مقابلة المديرة فوافقت فورا على استقبالنا في مكتبها , تبادلنا أطراف الحديث , شرحت لها سبب زيارتي , سألتني ان كان لدي أي معلومات بخصوص هويتي , في الواقع أنا لم أكن أعلم سوى تاريخ ميلادي و حتى هذا الأخير بت أشك في مصداقيته ذلك أن هنالك أطفال يعثر عليهم في الشوارع بعد أيام من ولادتهم فيتم اعطائهم تواريخ ميلاد تقريبية لجهلهم بالتاريخ الحقيقي, قالت أنها سترسلنا لموظفة تدعى نيكول و هي ستساعدنا, كانت نيكول هي المسؤولة عن حفظ وثائق و ملفات الأطفال هناك , قالت بأنهم يحتفظون بالمعلومات التي تخص الأطفال الذين سبق و غادروا الدار على جهاز الحاسوب, كان يكفي أن أزودها بتاريخ ميلادي لأرى صورتي تعرض على الشاشة , رحت أحوم حولها بنظرات مسروقة أتحرى ان كان هنالك أية معلومات تخصني , كانت خانة الاسم فارغة , كل الخانات فارغة سوى من أسماء المشرفين

الاداريين و بعض التواريخ , من وضعني في هذا المكان كان حريصا أن لا يترك أي شيء يشير اليه , كان يريد التخلص مني فحسب كأني اللعنة الأكبر في حياته , تلك الخانات الفارغة كانت مليئة بما يكفي لأقرأ و أفهم , تلك السطور التي تركت للبياض كانت تنقش بالأسود على بياض قلبي , كانت تقول أشياء تصدح في أذني

قالت نيكول و هي تناولني ورقة كانت قد دونت شيئا عليها

- أنظري هذا هو عنوان السيدة ماري , لقد أحيلت للتقاعد منذ زمن, انها سيدة مسنّة حتى أني لست واثقة ان كانت لاتزال تقطن في ذات العنوان
- لابأس ,أشكرك على المساعدة ..أرجوك اشكري المديرة نيابة عني
- لا داعي للشكر , طاب يومك

خرجت و أنا ألقي نظرة على العنوان المدون , سألت عصام ان كان يعرف هذا المكان

- انه حي عتيق بضواحي مرسيليا
- أنذهب اذن؟

كنت مرتبكة و مترددة , كيف لي أن أقف أمام امرأة عجوز لأسألها عن أمر حدث منذ أربع و عشرين سنة ! هذا يبدو ضربا من الجنون

قلت ألتمس شيئا من الاطمئنان :

- أتظنها ستذكرني؟

رد ساخرا :

- فلندع أن تكون العجوز على قيد الحياة أولا !
- ماذا لو ماتت؟؟؟
- لا عليك حتى و ان لم تساعدنا تلك المرأة سنجد طريقة أخرى , كوني واثقة أن لا شيء يظل مخفيا للأبد

انطلقنا ..لم يكن العنوان بعيدا شارع..شارعين, منزل..منزلين ..وصلنا !

طرقنا الباب , رحت أتأمل المنزل من الخراج في انتظار أن يأتينا الرد , كان منزلا عتيق الطراز , بهي الطلة, تبدو جدرانه على سماكتها متصدعة, تعشش بين شقوقها خلايا النحل, باب خشبي ضخم و نوافذ مقوسة , تتدلى من نصفها المفتوح أشتال الورد , سقف مرتفع و سطح من القرميد هرمي الشكل , باهت اللون تتوسطه مدخنة ضخمة , تتربع في احدى زوايا المنزل الخاريجية جرة ماء قديمة قدم الطحالب العالق على أطرافها

أحدهم يقترب..يفتح الباب

سيدة أربعينية ,طويلة القامة, نحيلة الجسم , ممشوقة القوام , مرتبة الهيئة , تسألنا و هي تثبث نظارتها بيدها

- كيف أساعدكما؟

قلت :

- هل هذا منزل السيدة ماري؟
- أجل , انها والدتي
- في الواقع, جئنا للتحدث اليها , نريد أن نسألها عن أمر خاص

قالت بعد برهة صمت :

- حسنا , سنكمل حديثنا في الداخل ,تفضلا

سارت هي و لحقنا بها الى غرفة صغيرة , غير مفروشة , ليس بها من الأثاث سوى طاولة خشبية بكراس أربع و قيتار مسنود الى الحائط , امرأة تعتنق الحياة الكلاسيكية تستقبل الضيوف في غرفة كهذه ! من الواضح أننا كنا ضيوفا من غير درجة و أن عتبة هذا الباب كانت حدنا

قالت و هي تسحب الكراسي اماءة لنا بالجلوس :

- استريحا قليلا ريثما أعود

غابت لدقائق ثم عادت تجر عربة متحركة , السيدة ماري امرأة على مشارف الثمانين, لم يتسنّ لشللها النصفي بعثرة مظهرها في أناقته و لا زحزحة حضورها في وجاهته و وقاره كما لم يتسن لزخارف العمر الغاء بهاء وجهها و سماحته, السيدة ماري جاءت هي الأخرى تجر حقائب الماضي حين دخلت و بيدها مفاتيح الأسرار

رأيت فيها أمي و جدتي , كانت همزة وصل ..جسرا بين جبلين ..أو بحرا بين قارتين أمي التي ربتني و الأخرى التي لا أعرف عنها شيئا , قمنا لنسلم عليها , قبلت يدها كما اعتدت أن أفعل مع جدتي , ما كانت تثقل معصمها بمقياس الذهب و لا تعصب رأسها بمحرمة مبهرجة, لم تكن كجدتي , كانت تشبه جدة أخرى رسمتها في خيالي .

تبادلنا الحديث و ربما الحنين, شرحت لها سبب زيارتي و قبل أن أنهي كلاما كنت بدأته قاطعتني ابنتها بلهجة حاسمة :

- أمي سيدة مريضة كما ترين, علاوة على ذلك فإن ذاكرتها ضعيفة جدا , بأي منطق تسألينها عن أمر حدث منذ أكثر من عشرين سنة !

أحرجني كلامها, عن أي منطق تتحدث ! أنا التي وجدت نفسي أسير مرغمة في طريق معبد بالامنطق , فهل يعقل أن يطرق أحدهم بيوت الناس ليبحث عن أهله كأنما يبحث عن قطعة أكسسوار ضاعت منه !

أردت أن أجيبها بأن المنطق في قصتي هو كل ما لم يحدث و هو كل ما لن يحدث لكني قلت :

- معك حق , أعتذر

تدخل عصام بعدما شعر باستيائي

- يا آنسة ..نحن جئنا لنكلم السيدة ماري لكنك لا تدعين لها الفرصة للتحدث

كانت على وشك قول شيء ما عندما قاطعتها السيدة ماري قائلة :

- هلا صمتم قليلا؟

ثم همست لابنتها و هي تشير بيدها كأنما تطلب منها احضار شيء ما , كان دفترا أحضرته و قدمته لها , أمسكته كأنها تمسك شيئا عزيزا , كأنه شيء نادر و ثمين , قالت و هي تضعه في حجري :

- في هذا الدفتر ستجدين ما تبحثين عنه !

حملته لأتفاجأ بعدها بأن ذلك الثمين لم يكن سوى ذاكرتها ! فتحت الذاكرة و رحت أقلب السنين على عجل ثم الأشهر و الأيام على مهل و كنت في قرارة نفسي أعتذر لكل يوم أهنت ذكراه و أنا أعبره سريعا بينما كان يستحق أن أقف عنده, أن أبكيه أو أضحكه أو حتى أن أنفض عنه

غبار السنين , ما كان يعنيني أولا هو أن أنفض عني غمامة السنين ...وجدته ! 1995/2/9 (اليوم الذي التحقت فيه بدار الأيتام)

قرأت :

« الطقس بارد اليوم, عدت من العمل منهكة ككل يوم, زوجي لازال متوعكا , حضرت له حساء الخضر مع السمك كما يحبه , أما هو فلايزال يتدمر من ساعات العمل الطويلة التي أقضيها خارج البيت, سئمت من الجدال معه حول نفس الموضوع كل يوم حتى أني أصبحت أفكر بالبحث عن عمل غيره, بالمناسبة ! أرسلوا لنا طفلة جديدة اليوم من باريس يبدو أن والدتها تركتها في المشفى و رحلت ! بعد عمر قضيته مع هؤلاء الأطفال لم تعد هكذا قصص تدهشني , ما أدهشني فقط هو أني سمعتهم يقولون بأن والدتها سيدة ثرية تملك فندقا باسمها و محلا فخما للعطور بباريس, ما الذي يدفع امرأة كهذه على التخلي عن ابنتها بهذا الشكل ! كان يجدر بها في أسوأ الحالات أن تحضر لها مربية خاصة و ينتهي الأمر ! »

شعرت بحزن شديد و أنا أقرأ تلك الكلمات , أيعقل أن تكون تلك المرأة هي والدتي فعلا ! ما الذي قد يدفع سيدة فاحشة الثراء لتترك ابنتها للعراء! أيعقل أن تصل القسوة بالمرء الى هذا الحد؟ لا أفهم أن تقدم امرأة تتوسد بطاقاتها المصرفية على ترك ابنتها الرضيعة لتتوسل بطاقة هوية ! لقد كان أهون عليّ لو اكتشفت بأنها امرأة فقيرة لا تجد ما تأكله,

لقد كان أهون عليّ بالفعل لو اكتشفت بأنها من بنات الشوارع لأني حينها كنت سألتمس لها سبعين عذرا لما اقترفته في حقي.

سحبت الهاتف من جيب سترتي لألتقط صورة للصفحة , كنت أدري أني سأحتاج لاعادة قراءتها في غمرة الليل الطويل , ثم انها الدليل الوحيد الذي بحوزتي

أعدت الدفتر للسيدة و أنا أمسك يدها , كان عليّ أن أغادر , اختصرت شكري و توديعي بجملة مقتضبة :

- سيدة ماري, تشرفت بمعرفتك , سأعود لنشرب القهوة معا ذات يوم, أومأت برأسها علامة القبول ثم طلبت من ابنتها أن ترافقنا الى الباب.

قال عصام متهكما و هو يفتح باب السيارة :

- أتعودين لزيارة كل شخص تقابلينه؟

أجبته و أنا أثبث حزام الأمان :

- لا تكن لئيما, انها سيدة مسنة , ثم اني أعجبت بدهائها كيف تحدت العمر حين واجهت خيانة الذاكرة بوفاء القلم !
- لا شيء وفيّ بالمطلق عزيزتي , حتى القلم يمكن أن يخون

- معقول !
- طبعا, اذا تحول لدليل يدين صاحبه, ألم يتعرض نجيب محفوظ لمحاولة اغتيال بسبب روايته أولاد حارتنا عندما اتهم بالكفر و الالحاد و رغم أنه نفى ذلك مرارا الا أنه لم يسلم من الحملة الشرسة التي طالته

سألته بابتسامة ماكرة :

- و هل تخون الريشة أيضا؟

يجيب ضاحكا :

- خيانة الريشة أسهل بكثير
- حقا ! كيف؟
- الريشة ليست كالقلم لغتها صامتة , يكفيها لتخونك أن توصل للمتلقي فكرة ليست فكرتك
- هل سبق و تعرضت للخيانة اذن؟
- يحدث دائما, لكن الأمر لا يزعجني , ما يزعجني فقط هو أن يتم احتسابي على جهات معينة لا علاقة لي بها كأحزاب سياسية أو مذاهب دينية ...دعينا من هذا الآن لم تخبريني ماذا وجدت في ذلك الدفتر

- ما كنا نبحث عنه
- اذن؟
- لقد تحدثت السيدة ماري عن طفلة رضيعة جاؤوا بها من باريس في نفس اليوم الذي التحقت فيه بدار الأيتام و قد ذكرت بأنها ابنة لسيدة تملك فندقا باسمها و محلا فخما للعطور
- معقول؟ !
- هذا ما كتب في الدفتر
- و ماذا قررت؟
- أن أبحث عنها
- لا أفهم اصرارك على البحث عن شخص تخلى عنك ! خاصة بعدما عرفته اليوم

أصمت

يقول متداركا :

- حسنا,لم أقصد أن أضايقك بما قلته, ما عنيته هو أنك قد تصابين بخيبة كبيرة من وراء هذا الأمر
- فليكن , بعد الذي عرفته لقد أصبح لدي دافع أكبر للبحث عنها , أريد أن أسمع منها و أن أفهم لم فعلت ذلك , ثم لا يمكنها

الافلات من خطيئتها بتلك البساطة, عليها أن تواجهني, أنا حقا لا أفهم كيف يصل الشر بالانسان الى هذا الحد؟

- اسمعي , ان أسهل مايقترفه المرء في هذه الحياة هو الخطأ و أسهل ما يفكر به هو الشر

"الشر ليس فوق المقدرة البشرية بل أقل منها " أجاثا كريستي

و مع ذلك دعينا لا نصدر أحكاما مسبقة , من يدري ربما لديها عذرها ...هل قلت أنها تملك فندقا باسمها و محلا فخما للعطور؟

- أجل
- سنجدها ,اتركي الأمر لي

قلت و أنا أتفقد هيأتي في المرآة الجانبية للسيارة :

- سأعتمد عليك ,اتصل بي اذا عرفت أي شيء
- ستنزلين هنا؟
- أجل ,لدي بعض الأعمال عليّ انجازها قبل العودة الى البيت
- حسنا ,طاب يومك

مر أسبوع قبل أن يرن هاتفي المنتظر ليزف اليّ البشارة

- سنذهب الى باريس نهاية الأسبوع !

صحت غير مصدقة :

- هل وجدتها؟
- وجدت قائمة باسم سيدات أعمال من بينهن سيدتان لديهما سلسلة فنادق ,احداهما خمسينية يرجح أنها هي
- اذن؟
- سنذهب اليها ,هي فقط من بامكانها تأكيد الأمر أو نفيه
- حسنا عليّ أولا اختلاق سبب مقنع يبرر سفري المفاجيء الى باريس ثم سأتصل بك
- لا مشكلة ,لازال أمامك أربعة أيام لتتدبري أمرك
- اتفقنا

***

باريس ,مدينة الأنوار ..عاصمة الحب و الجمال ,هي سيدة فاتنة تتربع على عرش الأناقة و ابنة مدللة للرسامين و الأدباء عبر كل بقاع الأرض ,يقولون عنها منافقة لا تصلح الا للأثرياء و يقولون بأنها مدينة بألف وجه ,أيا كان فباريس ستبقى دائما باريس

"باريس هي المدينة الوحيدة في العالم حيث يمكنك قضاء وقت ممتع دون فعل أي شيء "

اريك ماريا ريمارك

" كونك باريسيا لا يعني أن تولد في باريس بل أن تولد مرة أخرى هناك"

ساشا جيثري

" باريس ليست مكانا يتم فيه تغيير الطائرات , انها مدينة تتغير فيها الحياة" سابرينا

" باريس موضع حسد لأولئك الذين لم يروها من قبل , السعادة أو التعاسة لأولئك الذين يعيشون فيها و لكن دائما الحزن على الذين يجبرون على تركها"

هونور دي بلزاك

هي الوجهة المحببة لملايين السياح الذين يتسابقون كل سنة للظفر بنزهة على ضفاف السين أو في شارع الشونزيليزيه المبهر بمحلاته الفخمة و روائحه الذكية لاقتناء زجاجة عطر فاخر أو تناول فنجان من القهوة الفرنسية بالشكولاطة أو البندق ثم الى متحف اللوفر أين يتهافت الزوار لالقاء نظرة على لوحة الموناليزا و غيرها من القطع الأثرية الثمينة

التي تعكس مختلف الحضارات الانسانية عبر العصور , و لا يمكنك زيارة باريس طبعا دون أن تلتقط صورة مع برج ايفيل , هذا البرج الحديدي الضخم الذي جعلت منه فرنسا رمزا لها و الذي يقصده كل زائر دون أن يسأل من أين جاءت فرنسا ب10100 طن من الحديد لانشاءه هل استخرجته من مناجمها حقا كما تدّعي أم أنه من خيرات الجزائر المنهوبة ابان فترة الاحتلال ؟ هذا البرج الذي كان أطول و أهم برج في العالم لسنوات طويلة هل يعكس حقا الجزء المشرق لفرنسا كما يبدو أم أنه هو الآخر واحد من أحلك صفحات التاريخ المطوية في الأرشيفات المنسية ؟ وليس عليك أن تذهب بعيدا فنهر السين صفحة سوداء أخرى من صفحات الذاكرة عندما خرج مئات الألاف من الجزائريين تلبية لنداء فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا للتظاهر سلميا تعبيرا عن رفضهم لقرار منع التجوال الذي فرضته فرنسا عليهم دون سواهم و ما كان لهم الا أن قوبلوا بالرصاص الحي من طرف شرطة "موريس بابون" و ألقي العشرات منهم في نهر السين في واحدة من أقذر جرائم فرنسا في التاريخ .

وليس ببعيد أيضا عن هذا المكان حمولة أخرى تثقل الذاكرة جماجم لشهداء الجزائر تحتجز لأزيد من 170 عاما في متحف الانسان مع مفارقة غريبة لاسم مكان لا يمت للانسانية بصِلة حيث احتفظ برؤوس مقطوعة لشهداء من بينهم قادة المقاومات الشعبية التي اندلعت آنذاك رفضا للاحتلال الفرنسي نكّل المستعمر بجثثهم و أمر بنقل رؤوسهم المقطوعة الى فرنسا باعتبارها غنائم حرب و من ثم الاحتفاظ بها في متحف و حسب ما كشفته وسائل اعلام فرنسية سنة 2016 فان متحف

الانسان يحتوي على 18000 جمجمة بينها 500 فقط تم التعرف على هوية أصحابهم من بينهم الشهيد البطل محمد لمجد بن عبد المالك المعروف باسم "شريف بوبغلة" قائد المقاومة الشعبية بمنطقة القبائل و كذا الشيخ بوزيان قائد مقاومة الزعاطشة .

تعذيب و تنكيل , طمس للهوية , ابادات جماعية ,مجازر و مذابح , تجارب نووية ,تلك كانت سياسة المستعمر الذي ظن أنه بقتل الأحرار و استباحة الديار سيرسخ قدمه في الجزائر و يتحول في عقول الجزائريين الى قدر محتوم لولا أن ارادة الشعب كانت لها الكلمة الفصل , تلك الكلمة التي ألقاها بن مهيدي للشارع و أحتضنها الشعب ذات نوفمبر . العربي بن مهيدي الشهيد البطل قاهر الاستعمار و مرعب جنرالات فرنسا الذي استطاع كتابة التاريخ بأحرف من ذهب , هو الذي وقف لبطولته اقرارا و اجلالا العدو قبل الصديق , صاحب الابتسامة الخالدة في عقول الجزائريين و صاحب مقولة "أعطونا دباباتكم و طائراتكم و سنعطيكم طواعية حقائبنا و قنابلنا "
نفذ فيه السفاح "أوساريس" حكم الاعدام بيديه بعدما عجز جلادوه عن استنطاقه بأي اعتراف أو وشاية برفاقه رغم الأساليب الوحشية التي أستخدموها لتعذيبه و التي وصلت الى حد سلخ جلد وجهه و وضع حديد ساخن في فمه , أقر أوساريس في تصريح له سنة 2001 أن روح بن مهيدي ظلت تلاحقه و تنغص معيشته لسنوات

"أسابيع من التعذيب , نزعنا أظافره .. جلده .. أجزاءا من جسده .. و لا كلمة خرجت منه ! بل واصل تحدينا بشتمنا و البصق على وجوهنا قبل تنفيذ الحكم "

و أردف قائلا " لا توجد امرأة في العالم قادرة على انجاب بن مهيدي .. ولا امرأة "

و قال عنه الجنرال بيجار " لو أن لي ثلة من أمثال بن مهيدي لغزوت العالم "

* * *

اذن كانت الوجهة باريس , وصلنا الى حيث ساقنا العنوان الى منزل السيدة أنجيلا , كان المنزل آسرا باطلالته الساحرة على حديقة تحيط به و بتصميمه العصري الفريد اذ ميزته واجهة زجاجية تسمح للناظر من الخارج أن يرى كافة أقسام المنزل بطابقيه العلوي و الأرضي ,اقتربنا من مدخل الحديقة أين قابلنا الحارس عند الباب سألناه أن يبلغ صاحبة

المنزل عن رغبتنا في التحدث اليها فغاب لبعض الوقت ثم عاد ليفتح لنا الباب قائلا :

- تفضلا الى الداخل , السيدة مشغولة الآن انتظراها قليلا

كان للمكان هيبته , لمحت أحدهم يشير اليه بأن لا يتركنا بمفردنا , كانت الأنظار كما الكاميرات موجهة صوبنا و كنت أتسائل "أي قدر و أي جنون جاء بي الى هنا ؟ "

ولجنا الى المدخل الرئيسي الذي قادنا بدوره الى مساحة مفتوحة تضم أركان المعيشة , كان المنزل منسقا بشكل مدروس يعكس الذوق الرفيع لصاحبته , كل ما فيه منتقا بعناية فائقة , الجدران كما الأثاث متدرج لونها بين الأبيض و البيج تتخللها بعض القطع الحمراء في تضارب بديع بين الألوان الصارخة و الدافئة ينعش ديكور المنزل ,كنبة كبيرة بيضاء على شكل حرف L ,طاولة مستطيلة زجاجية شفافة مع كراس بيضاء تتكئ على قواعد من " الستانلس ستيل " جانبت دورسوار أحمر يمتد على طول الجدار , في الزاوية الأخرى ثلاث طاولات خشبية دائرية بأحجام مختلفة , يقابل كل هاته المساحة واجهة زجاجية بستائر رمادية يمكن اسدالها لحفظ خصوصية المكان .

وقفت على قارعة الحياة أنتظر قطاري القادم , أتساءل كما كل مرة الى أين هذه المرة !

وقفت أنتظرك سيدتي و لم أنتق من حقل الكلمات الذي يتفجر داخلي منذ ذلك اليوم شيئا أقوله لك .

ها أنت تجيئين بشموخ متوقع يسبقك الينا وقع كعبك العالي و ها أنا ذي أقف أمامك لأول مرة منذ أربع و عشرين سنة مجردة من اللغة يتلبسني الصمت و كنت أدري و ما كنت تدرين بأن الصمت لغة من تثقل الكلمات كاهله أو تعلق المواقف غصة في حلقه فبما أبرر تواجدي المفاجئ في مملكتك و بين حاشيتك و هل لي أن ألومك بعدها ان قمت بطردي ؟

ها أنت أمامي أتأملك , أبحث في ملامحك الأوروبية عن شيء مني في زرقة عينيك الصغيريتين , في رسم شفاهك , في حمرة خدك , في شعر مستعار ترتدينه يحجب عني لون شعرك الأصلي , أتأمل فستانا قصيرا ترتدينه باللون النيلي مصنوع من قماش المخمل الفاخر بأكمام طويلة من الدونتيل نسقته مع طقم من الذهب الأبيض و الماس و حذاء كلاسيكي أسود بكعب عال , و كنت تبادلينني نظرات باردة أتقاسمها مناصفة مع عصام , تساوين فيها بيني و بين أي شخص غريب قابلته ليس الا ! ثم أعود لأتأمل المكان من حولي و أسأل كيف تقاطعت طرقنا اليوم ! أنا التي لا أعرف عن حياة البذخ سوى ما يصلني عبر الشاشات و أنت التي لا تعرفين عن حياة العرب سوى ما أرادوا ايصاله لك عبر الشاشات أيضا

أهذه حقا أنت؟ سؤال لم أجرؤ على طرحه يومها و ما كان ليُطرح هكذا وقوفا على مسافة ثلاثة أمتار تركتها بيننا و على مهب من المسامع ! لكن ماذا لو واجهتني بسؤال معاكس يحمل نفس الدلالة ثم ماذا لو لم تكوني

أنتِ؟ ماذا لو رمى بي القدر بين جدران حياتك اعتباطا ! ماذا لو شعرت أن في الموضوع اهانة لشخصك أو طعن لشرفك ! كيف لي أن أرقع الأمر بعدها؟

و جاء صوتك أخيرا وسط حيرتي بسؤال مفاجئ تمسكت به لأبعد عني احتمال السؤال الآخر , قلت :

- هل أنت الممرضة الجديدة؟

أجبتك دون تفكير :

- أجل, أنا هي !

ثم قلت و أنت تشيرين لسيدة أربعينية يتضح من طقمها أنها تعمل لديك :

- انظري , هذه كارلا مدبرة منزلي ستقدم لك ملفا به كل المعلومات التي ينبغي أن تكوني على دراية بها كما ستجدين جدولا بمواعيد الطبيب و الأدوية , راجعيه جيدا

قلتِ ذلك ثم أدرت ظهرك و انصرفت. أشارت كارلا اليّ بأن أتبعها عندما أمسكني عصام من ذراعي و قد عقدت حاجباه و احمر لونه بغضب مكبوت :

- ماذا تفعلين؟؟
- أخفض صوتك , سيسمعوننا
- لا أفهمكِ ! لماذا قلتِ لها بأنك الممرضة ؟ هل جننتِ؟؟
- لا و لكن ما بيدي حيلة , سأظل هنا ليومين أو ثلاث على الأكثر سأحاول خلالها خلق فرصة مناسبة للحديث معها على انفراد

يضحك بتهكم :

- فرصة مناسبة ! تظنين أنها ستقوم بدعوتك للعشاء مثلا ! أنت تتوهمين , انها تعاملك معاملة الخدم ليس الا...ثم ماذا لو جاءت الممرضة التي كانت بانتظارها , ماذا ستفعلين حينها
- لا أدرِ, سأتصرف !

يشد قبضته على ذراعي و يسحبني نحو الباب :

- لا تعلمين حجم المأزق الذي ورطتنا به, هيا فلنغادر قبل أن ينفضح أمرك
- أتركني, أنت تؤلمني

انظرُ الى كارلا التي كانت بانتظاري في الممر

- عصام أرجوك غادر الآن , سأتصل بك ان حدث معي أي شيء
- أرى أنك قد جننت فعلا , تظنينني سأغادر هكذا ببساطة ! ثم بِمَ سأبرر لوالديك اللذين يظناننا في رحلة سياحية عودتي بدونك ! و هل ....

أقاطعه بلهجة حاسمة :

- أتيت الى هنا للوصول لأجوبة لأسئلة أرهقتني ليال طويلة بل و نغصت معيشتي , من السهل أن تقول عني مجنونة لأنك لا تفهم كل ما مررت به..أنا لن أغادر قبل التحدث مع السيدة

يُفلت ذراعي و يقول بعدما أخد نفسا عميقا أرخى به تضاريس وجهه المقبوضة غيضا :

- حسنا, كما تريدين , سأغادر لكن ليس الى البيت , سأظل في فندق قريب من هنا , اطلبيني ان حدث معك شيء
- حسنا سأتصل بك

ثم قال بلهجة أعرفها جيدا و هو يدير ظهره :

- لا تطيلي البقاء , أسعار الفنادق باهظة هنا ..شيء آخر..هذه آخر مرة تطلبين فيها مساعدتي

أبتسم :

- لا عليك, لن أطلب مساعدتك الا اذا أصابتني نوبة جنون جديدة , الى ذلك الحين...لا تقلق

بتلك الكلمات ودعني , كنت أعلم أنها طريقته في العتاب لا غير , لحقت بكارلا التي دلتني على جناح خاص بالموظفات في الفيلا , قالت و هي تفتح باب احدى الغرف :

- من اليوم , هذه غرفتك..و تلك غرفتي بجوارك , نادني ان احتجت لشيء

سألتها و أنا ألقي نظرة سريعة على الغرفة :

- هل تعملين هنا منذ زمن؟

قالت و هي تعاين الغرفة و تغير فراش السرير :

- أنا أعرف هذا المكان أكثر من صاحبته, لقد عملت فيه قرابة العشرين سنة !

عشرون سنة !! يا الهي لاشك أنها تعرف الكثير ! للحظة كنت سأسألها عن كل شيء لكني تراجعت , هذه المرأة لديها ولاء كبير للسيدة كما يبدو , ان جعلتها تشك بأمري فلن تقدم لي أية معلومات , الذكاء هنا هو أن أستدرجها للأجوبة دون أن تدرك بأنها ترضي تساؤلاتي

قلت و أنا أساعدها في ترتيب الغرفة :

- أستنتج من كلامك بأن علاقتك جيدة بالسيدة أنجيلا..أقصد أنك أمينة أسرارها

قالت و هي تخرج من الخزانة الفارغة ثوبا كان يقبع وحيدا على رف للنسيان :

- للسيدة أنجيلا شخصيتها و أنا أحترمها , هي لم تقلل من احترامي يوما لكنها تضع حدودا لعلاقتها مع الخدم, ثم أردفت و هي تنفض الغبار عن الثوب الذي لم أكن أعلم لحظتها أني سأكون للمرة الثانية حظه العاثر الذي سيتركه على رف آخر للنسيان :

- هذا لا ينفِ طبعا بأني أعرف الكثير عنها فقد كنت الى جانبها في أضيق منعطفات حياتها

قلت :

- الأثرياء يوهموننا دوما بسعادتهم, لا أتعس من شخص يشهر في وجهك ثراءه بغية ترك مسافة اجتماعية مقصودة بينكما بينما يدرك تماما بأن كل ذلك الذهب من حوله قد فقد بريقه حقا يوم وقف عاجزا عن مساومة الحياة في أحلك ظروفها

تضحك و تربت على كتفي ثم تقول :

- المال يا عزيزتي و ان عجز عن حل بعض مشاكلنا كما تقولين فهو على الأقل لن يعجز عن مواساتنا , لن يدعنا نتهشم تحت وطأة الظروف بل و سينتشلنا منها بأقل خسائر ممكنة

كنت سأقول :

- ليس المال وحده ما من شأنه أن يرمم جراحنا لكن النقص الذي بداخلنا هو ما يجعلنا دوما نوجه الضوء لما يستطيع المال فعله و ليس للأشياء الأخرى

لكنها قالت شيئا سلب تركيزي و غيّر مجرى الحديث :

- السيدة أنجيلا مثلا رغم ما تكبدته حياتها من معاناة طويلة مع المرض و الذي حُرمت اثره من فرصة الانجاب ثم أزمة طلاقها المفاجئ الا أنها لا زالت تقف على قدميها بنفس الكبرياء و الهيبة

قالت هذا و هي تضع الثوب بين يدي :

- هذا الثوب لقد كان لشابة في مثل سنك كانت تعمل هنا قبل أن ترحل و تتركه , تدبري به أمرك الى أن تحضري ثيابك

كلامها حمل لي جوابا و استنتاجا , الأول هو أن السيدة أنجيلا ليست والدتي و الثاني هو أن ما قاله عصام صحيح يبدو أني أصبت بالجنون فعلا عندما فكرت باختلاق كذبة ساذجة للبقاء في منزل امرأة لا أعرف من تكون , جلست على حافة السرير أتأمل ثوبا كم بدا لي حينها يشبهني جميل و بائس مع فرق وحيد هو أنه ترك على رف النسيان سهوا و تركت أنا على رف الحرمان قصدا .
فكرت باختلاق عذر ما لأغادر سريعا اذ لم تعد لدي أية رغبة في البقاء أكثر في مكان لا تربطني به سوى كذبة طائشة لفقتها الظروف و احتميت بها في لحظة جبن , قررت أن أقول بأني سأغادر لظروف طارئة تخص العائلة , أخرجت الهاتف من جيب سترتي لأتصل بعصام عندما عادت كارلا حاملة اليّ ملفا طبيا ناولتني اياه و قالت :

- راجعيه جيدا كما طلبت السيدة

وضعت الملف جانبا و اتصلت بعصام لكنه لم يرد , أعدت المحاولة ثانية دون جدوى , كنت مرتبكة , فضول ما راودني لأفتح الملف محاولة فك شيفراته الطبية , كان الملف شاملا لكل المعلومات التي تخص الوضع الصحي للسيدة , ما فهمته من خلاله هو أنها تعاني منذ سنوات

من مرض في القلب و أنها ستخضع لعملية ما قريبا شعرت بالاستياء من نفسي لقد كان هذا على الاطلاق أغبى شيء قمت به في حياتي , قررت أن أعيد الملف لكارلا و أنسحب من هذه اللعبة بهدوء قبل أن تقع عيناي على شيء كان أشبه بعود كبريت ألقته المصادفة بين ثنايا قلب كان يضخ بدل الدم بنزينا اذ ذكر في ملف السيدة بأنها سبق و خضعت لعمليتين جراحيتين احداهما سنة 1986 عن استئصال ورم ليفي و الثانية سنة 1995 و كانت عملية قيصرية , كيف هذا ! فكارلا قالت بأنها لم تنجب من قبل ثم أن التاريخ المدون يوافق سنة ميلادي ! أي مصادفة هذه !! أيعقل أن تكون هذه المرأة والدتي فعلا و أنها تخفي الأمر عن الجميع ؟ أنا التي كنت قبل برهة فقط أعترف بحماقة ما اقترفت و أوشك أن أوصد الباب و أرحل بهدوء , لم أستطع ابعاد نظري عن تلك الكلمة و لا عن ذلك التاريخ بل رحت تحت وقع المفاجأة أقلب الأوراق على عجل لأبحث عنه في سطور أخرى عساه يكون هذه المرة مرفوقا بيومه و شهره مما لا يدع لي مجالا للشك لكن عبثا فقد كانت تلك هي المرة الوحيدة التي ذكر فيها هذا الأمر , ماذا أفعل الآن ؟ لا أريد أن أغادر قبل معرفة الحقيقة , في الوقت نفسه لا أريد الاستمرار في لعبة دنيئة تلزمني ارتداء مأزر أوسع من مقاسي العلمي ما قد يعرض حياتها للخطر, لكن ان خرجت من هذا الباب الآن فقد لا أعود مطلقا الحياة تضعني في اختبار صعب بين أن أختارها هي أو أختار نفسي فمن سأختار ؟ و هل كانت هي حقا تلك التي وضعت في نفس الاختبار يوما فأختارت نفسها و بشدة حين قررت أن تتركني لرحمة الأيام دون اسم .. دون مأوى .. دون نسب .. و دون فلس واحد !

تذهلنا الحياة بمقدرتها العجيبة على ترتيب الأحداث و استدراج الظروف لتضعهم في نفس الموقف الذي ظنوه قد صار غابرا تحت أنقاض الزمن المنسي لتعود و تفاجئهم بمقدرتها المذهلة على قلب الأدوار لصالحنا و منحنا الفرصة للانتقام , في الواقع فكرة الثأر لم تعد تعنيني , أي ثأر أكبر مما تعيشه هذه المرأة انها وحيدة تعيش بين الأرقام , أرقام مصرفية و أخرى هاتفية حتى صارت لا تتحدث الا بها , ألهذا سألتني حين رأتني دون مقدمات و دون كثير من التفكير عما اذا كنت أنا هي الممرضة التي أرسلت في طلبها كأنها تستبعد أن يقدم شخص على زيارتها لغير سبب أو كأنها نسيت بالفعل كيف تشارك ضيوفها فنجان قهوة وليس لأنها تنزلنا منزلة الخدم كما ظن عصام ؟, أي فقر تعيشه هذه المرأة ! انها لا تملك سوى المال و لأني أملك ماهو أغلى و لأني لم أكن يوما فتاة المنطق و الحسابات الدقيقة بل كنت دوما فتاة "قدرية" قررت أن أبيت تلك الليلة فقط ثم أغادر دون كثير من الأسئلة و دون خيبة أيضا ففي النهاية نحن لا نحصل على أقل مما قُدّر لنا ثم أوليست الأشياء التي نتمسك بها حين نقرر التخلي عنها فقط تعود الى أقدامنا لاهثة !

أعادني صوت الهاتف المفاجئ الى عصام الذي كان بالي مشغولا عليه اذ به بال أمي المشغول علي ينهال عليّ بأسئلة لا جواب لي عليها سوى أنا بخير .. أراك غدا و أغلق الخط , أستعيد أنفاسي , أتفقد ساعة يدي لأتحقق من اقتراب موعد دواء السيدة اذ ليس لدي خيار سوى أن أتحمل مسؤولية حماقتي كاملة هذه الليلة , لا أنكر أن كانت لي رغبة سرية بمقابلتها مرة أخرى أردتها على مسافة أقرب في وضع أكثر شفافية دون مستحضرات للفوارق الاجتماعية , لنقل أني أردت الاعتماد على

حدسي هذه المرة لعله يقودني الى استنتاج ما و الى شهقة جديدة اذ كنت لا أزال أتنقل في هذا المنزل من فكرة لأخرى و من دهشة لأخرى دون أن أستوعب تماما ما يحدث و حتى عندما قصدت الحمام لأرتب هيأتي قبل لقاء السيدة وجدتني أقف أمام بابه حائرة أبحث له عن مقبض أو حتى كبسة زر أريد أن أسأل و احدى العاملات تمر بجواري من أين يفتح هذا ؟ لكني أستحي أن أفضح جهلي لأتفاجئ به يفتح من تلقاء نفسه فأدخل دون أن أفهم تماما كيف حدث هذا ثم أقف أمام صنبور للماء خال من أي مكبس أيضا يشتغل من تلقاء نفسه حتى ظننت أن هنالك من يراقبني فالأشياء هنا تهرع لخدمتك قبل أن تطلبها ,كأننا لا نعيش نفس الزمن , ترانا نحن من فاتنا ركب الزمان أم هم الذين قفزوا الى العصر اللاحق باكرا !! , و حتى هذه المرايا الفخمة من حولي لسبب ما تجعلني أبدو أجمل من ذي قبل و لسبب آخر تجعلني أندم على ارتدائي لثياب كم تبدو اليوم عادية و قد كانت بالأمس أجمل ما في خزانتي , هذه المرايا بالذات تجعلك ترغب بتغيير مظهرك سريعا كأنك تعتذر لها على هيئتك , كأنك تعتذر وسط كل هذا البريق على عدم ارتداءك لقطعة حلي واحدة , على اكتفاءك وسط كل هاته البهرجة بذلك اللون القاتم الذي أقنعوك يوما بأنه ملك للألوان , كل هاته القطع الثمينة تجعلك ترتبك , تطرح سؤالا كم ظننت قبل اليوم جوابه محسوما "هل قيمة الانسان تكمن في جوهره حقا ؟" أم أننا لازلنا نتغنى بحكم انتهى زمن صلاحيتها أم تراهم يقصدون جوهرا غير الذي فهمناه !

بعد كل هذا أكان عليّ أن أرتب مظهري أم أرتب الفوضى التي تعبث بداخلي ؟

تذكرت حكمة طريفة أظنني سمعتها في أحد أفلام الكرتون تقول "ان كنت عاجزا على الظهور بشكل جميل فكن نظيفا على الأقل " قررت أن أعمل بها و آخذ حماما أرخي به أعصابي المشدودة مذ وطئت قدماي عتبة هذا المنزل عدا ذلك فالروائح المنعشة في هذا الحمام تفتح شهيتي لاستعماله .

ما كدت أنتهي من تجهيز نفسي حتى وجدت كارلا بانتظاري تحمل صينية فضية صغيرة بها كأس ماء تفوح منه رائحة الورد و علبة دواء , ترمقني بنظرات فيها شيء من العتب ,قلت كمن يعتذر :

- هل تأخرت ؟
- دقيقتان .. أنت متأخرة بدقيقتين

قلت و أنا أحمل عنها صينية الدواء :

- حسنا , سأذهب على الفور

كيف أشرح لهؤلاء أني أنتمي لفصيلة أخرى لا تعط للحياة هذا القدر من الاهتمام و أنني تعودت عندما أسأل أمي عما اذا كانت قد تناولت دوائها الذي مر على موعده أكثر من ساعتين تجيب بأنها ستأخذه عندما تنتهي من تنظيف المطبخ ناهيك عن جدتي التي لم تعد تذكر أين أضاعت علبة الدواء .

قالت تجيب على سؤال نسيت طرحه :

- الطابق الأول .. الغرفة الثانية علي اليمين

طرقت الباب الذي وجدته نصف مفتوح فجاءني الاذن بالدخول لأجد نفسي وسط مكتبة واسعة تضم عددا هائلا من الكتب مفتوحة بممر ضيق على غرفة نومها و مصممة بطريقة كلاسيكية بسيطة خلافا لكل أركان المنزل الأخرى , ذلك أننا لا نلمع سوى الأشياء الفارغة بأعيننا أما تلك التي ينبع بريقها من داخلها فهي ليست بحاجة الينا لأنها تلمع نفسها بنفسها

رأيتها تجلس الى كرسي خشبي و طاولة مستديرة صغيرة بجوار الواجهة الزجاجية تطالع مجلة ما , استغربت الأمر فما هذا زمن للمجلات الورقية ولا هي بالمرأة التقليدية , كانت كما أردتها طبيعية أكثر تختلف كثيرا عن أول لقاء و قد أعادتها اطلالتها البسيطة الى عمرها الحقيقي , كانت ترتدي بدلة نوم حريرية دون تكلف لا تضع من المساحيق سوى ما يداري شحوب لونها و قد خلعت تلك الحمرة المستعارة عن شعر أسود قصير لا يكاد يطال أذنيها , طلبت مني أن أضع الدواء على الطاولة أمامها ثم قالت و نظراتها تتسلق جسدي :

- غريب ! أخبروني بأن الممرضة في الأربعينات من العمر لكنك لا تبدين كذلك !

و قبل أن أقول أي شيء أضافت :

- أتعلمين ما الغريب ؟

قلت :

- و ما الغريب ؟
- ملامحك تبدو أوروبية لكن هيأتك مختلفة
- كيف ؟
- لا أدر ! .. ثيابك أوسع من مقاسك و شعرك أطول من اللازم .. تشبهين الغجر أو .. أو كأنك من تلك المجتمعات المنغلقة التي ترغم بناتها على تغطية أجسادهن

فاجأني كلامها, لا أدرِ ان قالت ذلك بدافع استفزازي في الواقع لم أتوقع أن تكون فظة الى هذا الحد ! الحقيقة هي أن مثل هذه النقاشات لا يربكني , فعادة ما يكون جوابي حاضرا , ما يزعجني فقط هو أن أظطر لمجادلة شخص يفوقني عمرا , أشعر أن النقاش معه خاسر دوما , فحتى عندما أهزمه أتضايق لأني قللت من احترامه بشكل أو بآخر فماذا لو كان هذا الشخص هو أمي .. أمي المحتملة لا غير, اصطنعت ابتسامة باهتة ثم قلت :

- نحن البشر لا نغطي الأشياء سوى لحمايتها و الا ما كنا جعلنا لمنازلنا أسقف تحمينا من مزاج الطبيعة المتقلب و لا كنا حرصنا على تغليف طعامنا للحفاظ عليه , انها سنة الله في الكون , كل شيء يترك للعراء يتعرضه الأذى و تلك المجتمعات "المنغلقة" لا تغطي أجساد بناتهن كما تعتقدين , انها تحميها فقط

يبدو أنها شعرت باستيائي أو أن ثقتي في الرد فاجأتها فأرادت أن تتدارك الأمر :

- لا تظني أني قلت ذلك لأقلل من شأنك .. أنا فقط أتحسر على فتاة في سنك و جمالك تبالغ في اخفاء مفاتنها .

هذه المرة أجبت بما كنت أعلم أني سأهزمها :

- على الأقل أنا أخفي مفاتني , هناك من يخفي أسرارا و هناك من يخفي جرائم أيضا .

تغير لونها فجأة و سرحت لبعض الوقت كأنها تذكرت شيئا ليس بالضرورة ما أفكر فيه لكن ما تأكد لي هو أن هذه المرأة تخفي من الأسرار ما يعكر صفو حياتها .. هذا ما كانت تقوله عيناها , فما تخفيه الصدور تفضحه الملامح دوما .

كنت أعلم أن النقاش معها قد انتهى عند هذا الحد فلا طعم لحديث يؤدي بك لدهاليز الذاكرة .

دب صمت مريب بيننا .. صمت لا أعرف كم مرة تقاطعت فيه أفكارنا عند نقاط كلانا يعلمها و كم مرة تباعدت عند تلك التي تعلمينها و أجهلها أو أعلمها و تجهلينها ، صمت بعمر فنجان قهوة ارتشفته على مهل و كم كان كافيا ليقال فيه كل شيء لم يقل يومها و كم كان كافيا لنسقط الأقنعة أخيرا عن وجهين لست أدري من منهما ظلم الآخر , تراني أنا حين اقتحمت حياتك بغير حق و ألبستك تهمة قد تكونين منها بريئة ! أم تراك أنت التي ظلمتني حيث حرمتني من كل شيء , أنت التي تملكين كل شيء !

كنت أقف بالقرب منك كأي شخص يعمل لديك ,أنتظر الأوامر فحسب حيث طلبت مني احضار بعض الملفات من درج مكتبك من بينها ملف طبي كان أثقل من ذاك الذي بحوزتي , شعرت برغبة جامحة بالاطلاع عليه , كنت أشعر أني سأجد فيه ما من شأنه أن يخمد نار الشك التي تحرقني , كان يكفي أن أجد ذلك التاريخ كاملا ليتحول شكي الى يقين .

سألتك ان كنت ترغبين بأن أراجعه معك لكنك قلت :

- خذي الصينية معك و عودي الى غرفتك

حملت صينية حسرتي و انصرفت على الفور وقبل أن أصل الى غرفتي رن هاتفي , كان عصام أخيرا ..

- هذا أنت ! لقد كان بالي مشغولا عليك ,لمَ لا تجيب على مكالماتي ؟

كان صوته مختلفا , شعرت بأن مكروها ما قد حصل , سألته بتوجس ..

- ماذا حدث ؟
- لاشيء مهم .. لا تشغلي بالك

و قبل أن أخبره بأننا سنغادر غدا فاجأني بقوله :

- سنغادر غدا ! جهزي نفسك !

و بعد أخذ و رد و محاولات عديدة لمعرفة ما جرى علمت بأن شجارا عنيفا قد حدث بينه و بين شخص ينزل بجواره بعد أن قام الأخير بتقديم شكوى لتغيير غرفة عصام مدعيا بأنه يخيف أطفاله .

شعرت باستياء شديد أفقدني توازني ,لقد كان هذا أسوأ ما قد يحدث ,ما قام به ذلك الرجل أكثر من كاف ليعيد عصام الى وكره و ليعيدنا معه الى نقطة الصفر .

الحياة غريبة حقا !بعد أشواط طويلة قطعتها سعيا في سبيل اقناعه بضرورة مزاولة حياته بشكل طبيعي و بأن الحياة في الخارج أجمل مما يتصور اذا به هو الذي يقنعني بأن العالم أبشع و أفضع مما كنت أظن .

عدت الى غرفتي محبطة و ارتميت على سرير كم أشفقت عليه من حمل أثقلته المواجع و أرهقته البدايات التي لا تكتمل بل و كلما حِكت لها وسط العتمة نسيجا من الأمل تشابكت خيوطها و أعادتني الى نقطة البداية ,فكرت طويلا في كل ما يجري فاستنتجت بأن المشكلة أحيانا

تكمن فينا نحن الذين اعتقدنا لفرط سذاجتنا بأن بامكاننا في كل مرة نواجه فيها أزمة أن نُفصّل لها حلا على قياسنا بينما يكون الحل أحيانا في أن نستسلم فقط ,أن ننزل من على عاتقنا زمام الأمور ,أن نُسلم المقود للقدر فحسب ففي نهاية المطاف أوليست الابرة و المغزل بيده هو ؟
ورغم ايماني بهذا كله و رغم اقتناعي بحتمية التخلي الا أن سذاجتي و اندفاعي غير المدروس عادا ليورطاني ,ففي صباح اليوم التالي و أنا أتهيأ للرحيل كنت أبحث عن كارلا لأخبرها بضرورة مغادرتي و لأسلمها ملف السيدة , عندما رأيت باب المكتبة مفتوحا و كنت قد رأيتها تغادر المنزل .. كان أول ما خطر ببالي لحظتها هو "الملف" , شعرت بأنها فرصتي , ترددت قليلا , التفت يمينا و شمالا , لم يكن هنالك أحد , كل شيء كان مشجعا , دخلت و اتجهت الى المكتب فتحت الدرج و رحت أبحث بين الملفات عنه , لم أكد أصدق بعد ليلة يأس مريرة , كيف قررت الحياة فجأة أن تكون كريمة معي لدرجة تركي دون رقابة وسط هذا الكم من الملفات ! وجدته , أخيرا أصبح بين يدي , و قبل أن أفتحه و قبل أن أطلع عليه حدثت المفاجأة ,دق جرس الانذار مدويا و معلنا عن حالة طوارئ , فتعالت الأصوات و تعالت معها دقات قلبي , لا أدر كيف نسيت بأن المنزل مزود بكاميرات مراقبة , كيف فكرت بأني قد أترك دون رقابة في مكان كهذا !!!

ابتلعت ريق ورطتي , أي تيار حماقة جرفني لهذه اللحظة ؟ أكان يجب أن أتمادى في سذاجتي الى هذا الحد ! أن يكون اخفاقي باذخا لدرجة أقرر فيها حتى و أنا في طريقي لأعلن فشلي ,أن أعلنه عن جدارة !

تسمرت في مكاني كمن يقف فوق لغم فلا الحراك سينفع و لا البقاء سيرحم , أتساءل عن سذاجة أو براءة ترى ما تهمتي ؟ أواسي نفسي بأني في مكان ليس به سوى الكتب و السجلات ما يبعد عني شبهة سرقة شيء باهض الثمن كأني لا أعلم حقا بأن سرقة المعلومات بالنسبة لهؤلاء أشنع من سرقة الذهب !

تذكرت دعاء أمي لي على الهاتف يوم أمس "ربي يبقي عليك الستر " فغلبني دمعي , تلك الدعوة التي لم أعد أستشعر جمالها لفرط ما سمعتها أجدني اليوم أتشبث بطرفها لعلها تقف شفيعة لنجاتي !

هدأ الضجيج فجأة ! أحدهم قادم....صوت أقدام تقترب..وقع حذاء نسوي يصعد الدرج بخطى رصينة ..واثقة ,كتلك التي سمعتها في أول لقاء حتى أني أكاد أجزم أنها هي

و كأول لقاء و ككل مرة أصاب فيها بنوبة ذهول , تخونني اللغة و تتلعثم على لساني الكلمات كطفل يتعلم النطق لتوه, الواقع هو أن هذه المرة ليست ككل مرة فالصمت لن يخدمني في هكذا موقف و الكلام هو سبيل الخلاص الوحيد, فليكن ! أوليست قضيتي أولا و أخيرا سوى قضية الطفولة ؟ ..ألم تبدأ قصتي معك في عمر ما قبل اللغة؟ ما المانع اذن أن نبدأ من حيث انتهينا , أن أعود طفلة تتعلم النطق على يديك , أن أحدثك بمنطق الأطفال ذاك الذي يحرجنا دوما و بتلقائيته يجردنا من منطقنا .

كنت لا أزال أمسك بذلك الملف المشؤوم عندما دفعت الباب و دخلت , لم أفكر بارجاعه بما أن الكاميرا وثقت كل شيء, كنت قد استسلمت لما يحدث فحسب !

اذن شاء القدر أن يكون لنا اليوم أيضا لقاء , كان ذلك لقائنا الثالث و "قبل الأخير"

كنت بكامل أناقتك , بكامل بهرجتك, لا تشبهين حتى نفسك ! كان يجب أن أفهم منذ البدء أنك امرأة تحترف الزيف في كل شيء و أن الحفلات التنكرية اختصاصك أنت , أنا التي حضرت حفلتك بقناع لا يناسبني فسقط مني عند أول عثرة, لذا قررت اليوم أن أواجهك بوجهي الحقيقي !

تقدمت عن الباب بخطوتين على الأكثر , و أنت ترمقينني بنظرات لاذعة تقاومين رغبة بشتمي أو ربما صفعي , توقعت أن تسألي ماذا تفعلين هنا أو كيف تدخلين دون علمي لكنك قلت تعقبين على حديث سابق :

- أتدرين ما الأسوء من أن يكون لديك أسرار ؟..أن تتطفلي على أسرار غيرك

ثم قلت بنبرة أكثر حدة :

- أتعلمين أن التجسس جريمة أيضا؟

أجبت بصوت منكسر :

- لم أكن أريد التجسس عليك

صحت في وجهي :

- من الذي أرسلك؟
- لا أحد..جئت من تلقاء نفسي

قلت :

- عم كنت تبحثين اذن؟

قلت بعد برهة صمت و أنا أمسح دمعة شقت طريقها ببطء على وجهي:

- أبحث عني !

جاء ردي صادما و ربما قادك لفكرة جعلتك تطيلين النظر في وجهي كأنك تكتشفين شيئا أو ربما كنت تحاولين تذكر هذا الوجه الذي رأيته حتما في مكان ما

سألتني :

- من أنتِ؟

أجبتك بلغة بدأت أستعيدها لتوي

- أنا ابنة تبحث عن والدتها التي تركتها في المشفى و رحلت قبل أربع و عشرين سنة

اتسعت عيناك دهشة أفقدتك القدرة على النطق للحظات , كنت تحاوليت استيعاب ما يحدث , راحت عيناك تتأملانني من جديد كأنهما تصلان أخيرا لتفسير لملامحي المألوفة

قلت بتهكم :

- تبحثين عن أمك بين أغراضي؟؟

كنت أعرف أنك تحاولين المراوغة ,قلت :

- بين أغراضك و في كل مكان حتى أجدها

أفزعتك لهجتي , كنت تحاولين باخفاق باذخ اخفاء آثار صدمتك, قلت :

- ليس لدي أولاد يا آنسة !

ثم قلت و أنت تطلقين ضحكة ساخرة :

- لاشك أن الذي دلّك على عنوان منزلي شخص أهبل

اقتربت منك خطوتين ثم قلت و أنا أثبت نظري في عينيك :

- أتمنى أن أصدقك , لكن عينيك تفضحانك سيدتي

انفعلتِ فجأة ثم خطفتِ الملف من يدي و رحت تقلبين أوراقه على عجل, أخرجت منه تقريرا طبيا وضعته في يدي و قلت :

- اقرئي ماذا كتب هنا..هيا اقرئي.. لقد كنت أعاني طوال حياتي من مشكلة صحية منعتني من الانجاب , تأكدي بنفسك

قرأت, كان ما قالته صحيحا و رغم ذلك كنت واثقة من أنها تخفي أمرا , أعدت التقرير اليها دون أن أتفوه بكلمة

قالت بنظرات باهتة :

- و الآن ..أخرجي من منزلي !

- سأخرج لكن دعيني أخبرك شيئا قبل ذلك , عندما دخلت منزلك كنت مرتبكة جدا , سألت نفسي أي قدر و أي جنون أتى بي الى هنا , شعور الذنب لم يفارقني مطلقا و لكن بعدما رأيتك و تحدثت معك أدركت أن الله كان كريما معك لدرجة أن يأتي بي حتى قدميك ليمنحك الفرصة في أن ترتاحي من هذا العذاب الذي نغص حياتك لسنوات , و ها أنت تزيدين على ذنبك ذنبا آخر , ها أنت تثقلين الحمل على كاهلك أكثر, ها أنت تسمحين لكبريائك بأن يطغى على ضميرك مرة أخرى , أنا لست مستاءة منك أنا فقط أشفق عليك و أتمنى حقا أن تجدي السلام في حياتك يوما ما

تركتك لتلك الكلمات و مضيت, كان عصام بانتظاري في الخارج, لم يسألني عن سبب تأخري و لا عن أثر الدمع في عيني و لا أنا سألته عن شيء , قرر كل منا أن يحتفظ ببؤسه لنفسه و كان كلانا قد فقد شهيته

للكلام و لطرح مزيد من الأسئلة التي لا تقودنا في النهاية سوى لأسئلة جديدة

ترى من فينا أشد بؤسا من الثاني ؟ هو الذي أصبح واجهة مشوهة لهوية عريقة لا غبار عليها ! أم أنا التي وجدتني فجأة واجهة جميلة لهوية مزيفة ! من فينا أحق بالشقاء من الآخر ؟ الذي فقد البريق أم الذي فقد الجوهر؟

تراه هو أشد شقاءا مني ؟ ! في عصر اختلطت فيه المفاهيم و تغير تصنيف الأشياء في سلم الأولويات فتفوق البريق على الجوهر ! , كنا في طريق عودتنا و كنت أطالع شوارع المدينة من زجاج السيارة و ظل عصام صامتا لم ينطق بكلمة منذ انطلقنا حتى جاء صوته أخيرا عندما أوشكنا أن نصل :

- ماذا فعلت بك تلك المرأة؟

أجيبه و أنا أسند رأسي الى زجاج السيارة :

- لاشيء...لم تفعل شيئا
- هل تمكنتِ من معرفة أي شيء منها؟
- هي ليست والدتي حتى أنها أرتني ما يثبت ذلك
- اذن ..لِمَ كنت تبكين؟

أصمت لحظة ثم أقول :

- نحن النساء قد نبكي أحيانا دون سبب واضح
- أنت تكذبين.. و مع ذلك لن أجبرك على البوح بأي شيء , تحدثي عندما تشعرين بالحاجة لذلك

* * *

مرت الأيام, كنت أحاول التعافي مما حدث و كنت قررت التخلي عن فكرة البحث بعد الذي حدث معي في منزل تلك المرأة,أردت أن أرتاح فقط و أن أدع للأيام مهمة تسيير حياتي كما قدر لها أن تكون .

مر الشتاء و هاهي سماء نيسان تطل علينا بصفاء زرقتها التي ينقلب على انعكاسها لون عينيّ, هاهو نسيمه العليل يتسلل اليّ ذات صباح من وراء ستائر الوحشة كدعوة سرية للفرح, هو الربيع اذن عاد يطرق أيامي لأشرع له نوافذ الاستقبال , هو الربيع حين يعود بباقات الاعتذار عما خلفه فينا جنون الشتاء فنقبل اعتذاره على الفور دون أن نجد تفسيرا منطقيا لجنون كذاك و لا لاعتذار كهذا!! أما أنا فما كان يعنيني حقا هو باقات أخرى لنوبات أخرى عشتها بمفردي قبل أن تعلمني الحياة فن الترويض , تعلمني كيف أعيش على حافة الحياة ,بين الضحك و البكاء , بين الربيع و الشتاء , صرت أتحاشى كل ما من شأنه أن يحرك حطب النار الخامدة

داخلي , صار فيّ شيء من عصام , من صمته المرير و من حزنه المكابر , من أجوبته المقتضبة و من فلسفته في الحياة

ها أنا زهرة أخرى من أزهار نيسان أتفتح داخل ثوب أرجواني انتقيته خصيصا لهذا اليوم , ها أنا أرفع قبعة النجاح و أحمل أخيرا شهادتي بين يديّ بمشاعر مختلطة أمام تصفيق الحضور و فخر والديّ, هاهو نيسان الذي علمونا أن لا نثق به ينقل اليّ عدوى بهجته كما همس في أذني ذلك الصباح ,ها هو يهديني أياما مسروقة من العمر قبل أن يجمع أزهاره و يرحل ليتركني لبداية فصل آخر و لهَبّة جنون من نوع آخر !

يوم جديد يهجم عليّ لا أدر ما أصنع به , أغادر سريري مثقلة بعينين نصف مفتوحتين , كنا في بداية أيام العطلة و لم أكن قد وضعت بعد برنامجا لمخططاتي الصيفية , فكرت في زيارة دانييل ذلك الفتى الذي تعرفت عليه في دار الأيتام و كنت وعدت نفسي بمساعدته , قررت أن أصطحبه في رحلة بالقطار الى متحف اللوفر بباريس ,كنت أدري أن رحلة كهذه ستسعده و ستظفي الكثير لثقافته الفنية

شعرت و أنا أدخل المتحف بغبطة من يزوره لأول مرة , ربما لأني كنت أرى الأشياء بعينيه هو و أطالع اللوحات بانبهاره هو و ربما لأن فرحة العطاء تفوق فرحة الأخذ, في الواقع لم أكن أشعر أني أمنّ على هذا الصغير في شيء, كنت أحب التواجد معه و أشعر أني آخذ منه بقدر ما يأخذ مني و أتعلم منه كما يتعلم مني بالضبط , حتى أني وجدت نفسي أسأله عن تلك اللوحات التي أعرفها أكثر منه ذلك أن في نظرته العميقة للأشياء حس فني فريد جعلني أتوهم للحظة أن كل ما قد يخبرني به من تأويلات عن تلك الرسومات صحيح

كنا نشعر و نحن ننتقل من قطعة فنية لأخرى و من حضارة لأخرى و كأننا في سفر عبر الزمن , اكتشفنا بعض الآثار المصرية و اليونانية التي تعود لعصور ما قبل التاريخ , مذهل أن تشاهد أمامك قطعة أثرية عمرها آلاف السنين ! شاهدنا تمثال رمسيس الثاني و القناع الذهبي لنفرتيتي و كذا تمثال فينوس دي ميلو مفقود الذراعين الذي يعود عمره لمائة و خمسين سنة قبل الميلاد! و الذي يذكرني بحركة نسوية قامت بها ناشطات فرنسيات سنة 2012 تعبيرا عن رفضهن لجرائم الاغتصاب من خلال الوقوف أمام هذا التمثال معتبرات أنه أفضل ما يمكن أن يرمز لعجز المرأة و ضعفها

انتقلنا لقاعة عرضت فيها اللوحة الزيتية الشهيرة للرسام دافيد هي لوحة "تتويج نابليون" لنتوقف أخيرا أمام رائعة دافينشي "الموناليزا" متسائلين عن سر تلك المرأة التي رسمها دافينشي ببراعة تحاكي آلات التصوير الحديثة

- من تكون هذه المرأة؟

يسألني دانييل

صحيح ! من هي هذه المرأة التي لم يخلد التاريخ قصتها كما خلد صورتها , لاشك أنها كانت امرأة استثنائيةحتى تحولها الحياة لقطعة نادرة تباع بملايين الدولارات يحج اليها الزوار من كل بقاع الأرض فقط من أجل القاء نظرة عليها !

أجيبه :

- يقال بأنها لسيدة ايطالية تدعى "ليزا" كانت زوجة لتاجر حرير ثري يدعى "فرانشيسكو جيوكوندو" كان قد طلب من دافينشي رسم اللوحة لزوجته , لكنه لم يسلمها لهما بل نقلها معه الى فرنسا لتصبح من نصيب الملك الفرنسي "فرنسيس الأول" , كما يقال في رواية أخرى بأنها صورة لوالدة دافينشي رسمها في شبابه , أو أنها امرأة من نسج خياله من يدري !

- سمعت أنها قد تعرضت للسرقة من قبل؟

- هذا صحيح, حدث ذلك.....

في تلك اللحظة شعرت بيد أحدهم توضع برفق على كتفي , التفت بسرعة اذ بها كارلا تقف خلفي , صحت مندهشة :

- كارلا ! هذه أنت؟ أي مصادفة هذه؟؟

قالت :

- ليست مصادفة, لقد رأيتك و أنت في طريقك الى هنا فلحقت بكِ , في الواقع أنا أبحث عنك منذ مدة

- تبحثين عني؟ !

- أجل, السيدة أنجيلا كلفتني بذلك

ثم قالت و نظرة حزن تملأ عينيها :

- انها على موعد مع عملية جراحية معقدة غدا صباحا و هي ترغب بالتحدث معك قبل ذلك , أرجوك اذهبي اليها

- و ...و أين أجدها؟

قالت و هي تخرج من جيب سترتها بطاقة صغيرة

- هذا عنوان المشفى الذي ستجرى فيه العملية , كوني هناك قبل الساعة العاشرة

أخدت منها البطاقة و بقيت تحت وقع المفاجأة أنظر اليها و هي تتركني لدهشتي و تنصرف

هل صدقت نبوءتي اذن؟ هل تركض الأشياء خلفنا حقا عندما نقرر التخلي عنها ؟ أم أنها تأتي في موعدها فقط و نحن الذين حين نقرر استعجالها نرتطم بالخيبات !

ما الذي تغير منذ ذلك اليوم؟تراها كلماتي الأخيرة ما حز في نفسك؟ تراها تلك الدمعة التي وقفت مكابرة في عيني و أنا أغادرك يومها ما أيقض ملاك الرحمة النائم في أعماقك لسنوات طويلة ما كانت سوى عمري !

تراك وجدت في دمعتي الشامخة تلك شيئا منك؟ من كبريائك و غرورك ؟ أم تراها رائحة الموت وحدها تملك تلك المقدرة العجيبة على ترويض الذئاب و تحويلها لقطط وديعة تتمسح عند أقدام ضحاياها !

مذهل هو الموت ! حين يجعلنا في لحظة نستوعب ما عجزت كبرى مدارس الحياة و أشهق منابر الأديان على تعليمنا ! مذهل هو حين

يجعلنا ندرك -متأخرين غالبا – أن ما كنا نلهث خلفه هو السراب و أنه هو الحقيقة الوحيدة التي لم نلهث لأجلها

كانت ليلتي تلك هي الأطول على الاطلاق , كان لها مذاق غامض بالمرارة التي لم أجد لها تفسيرا حينها سوى أن تكون نبرة كارلا المحملة بالأسى قد أصابتني بالعدوى, كان في نبرتها شيء من الألم و من الوعود القدرية الغامضة التي بت على اثرها محمومة باحتمال ذلك الموعد

لم أقدر على النوم , لم تكن تلك ليلة للنوم على كل حال , بت متكئة على علامات الاستفهام, أتقلب من احتمال جواب لآخر , ألتحف بغطاء العروبة لآخر مرة قبل أن تعريني الحياة , و أحتضن مفرداتها المحببة اليّ قبل أن أصاب بخرس الذهول و قبل أن ألتحق بعداد منكوبي اللغة !

ها هي الحياة ترتب لنا موعدا آخر بمذاق آخر و بملامح مختلفة على سرير بارد للمرض في غرفة بكل ما وضعوا فيها من سبل للراحة بائسة !

ماذا عساك ستقولين ! و بم ستبررين ! أي خليط أعذار تراك حضرت لترممي خراب السنين ! أي خليط أعذار و هناك خراب لفرط اهماله لا يعود يصلح للترميم ! بم ستبررين و كل عذر سيبدو ملفقا بالنسبة لسيدة في مكانتك و ثرائك !

لا أدر كيف شعرت حين رأيتك أني لم أكن أنا الطرف الثاني لذلك اللقاء , شعرت أني طرف ثالث فيه فقط و أن الحوار الأهم لم يكن ذاك الذي سيدور بيني و بينك بل الآخر الذي كان بينك و بين ضميرك أو بينك و بين الموت الذي كان ملكه حاضرا بيننا يومها

كنت و كأنك تطلبين منه أن يمنحك بضع يوم اضافي تحصلين فيه على صك الغفران الأخير, و هاهو يمنحك فرصتك الأخيرة كما طلبت , ها أنا ذي خطيئتك الكبرى – أو لعلي احدى خطاياك فقط- قد جئت اليك سيرا على الأقدام كما أردت فماذا عساك ستقولين ! و بم ستبررين !

ها هما قدماي تتواطئان معك و تحملانني على جناح السرعة الى ذلك المشفى , تصعدان بي كل تلك الطوابق الشاهقة للوجع , تعبران بي كل تلك الممرات الطويلة للألم , لتتوقفا أخيرا عند باب غرفتك لأتلقى صفعتي الأخيرة على يديك

نظرت اليك من خلف الباب الذي ترك مواربا, كنت مستلقية على سريرك , كنت شاحبة و ترتجفين بردا أو خوفا لست أدري ! كنت كأي شخص خرج لتوه من مستنقع الخطايا الى بر التوبة يكاد يصرخ زملوني ..زملون , بارد هو بر التوبة سيدتي عندما نطيل المكوث في أعماق المستنقعات !

طرقت الباب فجاءني اذنك بالدخول , مددت يدي لأسلم عليك فصافحتني بحرارة من يقابل صديقا قديما , وضعت باقة ورد كنت اقتنيتها و أنا في طريقي اليك على الطاولة التي جاورتك فشكرتني و أثنيت على ذوقي في اختيار الورود , كانت ملامحك باهتة, منطفئة , و صوتك متقطعا ببحة مخيفة , ترى ما الذي حل بك منذ يوم تركتك ليؤول بك الحال الى هذا الوضع؟ , ساعدتك على الاعتدال في جلستك ثم سحبت كرسيا و جلست بقربك أستمع اليك و أنت تستهلين كلامك بسؤال بدا لي متأخرا جدا, قلت :

- ما اسمك؟

- سارة...اسمي سارة

ثم قلت و أنت تستعيدين شيئا من قوتك :

- اسمعي يا سارة , ما سأقوله قد يبدو غريبا, لكنه الحقيقة , حقيقتك التي احتفظت بسرها لسنوات طويلة , أغلقت عليها كما نغلق على هرة صغيرة اذ بها تكبر مع مرور الزمن و تتنمر و تأخد فجأة ملامح مخيفة , تتربص بي عند كل منعطف للذاكرة و تهجم عليّ كلما مررت بطيف ذكراها , تشلني , و تطاردني حتى في نومي , تنخر في جسدي كالمرض العصي عن التشخيص , كنت أشعر دوما أنها على وشك أن تُجهِز عليّ بشكل أو بآخر و قد آن الأوان أخيرا لأفرغ منها , لأشرّع لها النوافذ و الأبواب , لأتحرر منها, أنا التي اكتشفت بعد عمر أفنيته في جمع المال أن الثروة هي أن تعيش خالي البال فقط , و أن الصفقة التي تخسر فيها نفسك لا يمكن أن تكون مربحة , و أنا خسرت نفسي منذ اعتقدت أني أستطيع أن أشتري بالمال كل شيء "فاشتريتك" و اشتريت مع تلك الصفقة الدنيئة شقائي

استوقفتها عند جملتها الأخيرة تلك :

- ماذا تقصدين بأنك اشتريتني؟؟

- اسمعي .. أنا لم أكذب عليك ذلك اليوم , أنا لست والدتك الحقيقية فعلا و ليس لدي أبناء !!

صحت منفعلة :

- كيف ! اذن لماذا أتيت بي الى هنا؟ و لمَ هذه المقدمة الطويلة ؟؟

- اهدئي ..سأخبرك بكل شيء لكن أولا عليك أن تهدئي

أخدتُ نفسا عميقا ثم قلت بنبرة أهدأ :

- حسنا , أنا أسمعك

- القصة بدأت قبل سنوات طويلة , كنت شابة يافعة و جميلة و كنت قد تزوجت من رجل أحببته بشدة , كان رجل أعمال ناجح و معروف و كنا من أرقى العائلات في باريس , ظلت حياتنا هادئة لسنوات , كنا نخطط خلالها لانجاب طفل يظفي البهجة الى حياتنا و يحمل اسمنا , كانت تلك رغبة زوجي و قد رغبت بشدة أن أحققها له لكن الحظ لم يحالفني فقد كشفت التقارير الطبية أني أعاني من مشاكل صحية معقدة و أن فرصة الحمل لدي ضعيفة , أصابني ذلك بالاحباط الشديد , عرضت على زوجي فكرة التبني لكنه رفض , كان يريد ابنا من صلبه , شعرت بالحزن لعجزي عن تحقيق رغبته لكني لم أفقد الأمل , اتجهت لأمهر الأطباء داخل البلاد و خارجها, وخضعت للكثير من الاجراءات العلاجية ,الى أن جاء اليوم الذي أكرمني فيه الله و حبلت بطفلة ,كان ذلك أسعد يوم في حياتي , أقمنا حفلا بهيجا بهذه المناسبة

حضره جميع معارفنا بل و حضرته شخصيات مرموقة في البلاد ,مرت فترة حملي بسلام و اقترب موعد الولادة , كنا قد جهزنا كل شيء لذلك اليوم و عندما بقي يومان فقط جاء اتصال لزوجي يفيد بضرورة سفره الى اسبانيا لأجل مشروع كان قد بدأ فيه قبل سنتين, استغربت اصراره على السفر في وقت كهذا , حاولت منعه لكنه رفض حتى أنه صرخ في وجهي قائلا "هل تريدين لمشروع وضعت فيه أموالا طائلة أن يفشل الآن ؟", فما كان مني الا أن أوافق على سفره , بقيت بمفردي الى أن حانت ساعة الولادة , اتجهت الى المشفى , كانت ولادتي عسيرة جدا , عانيت من مضاعفات خطيرة فنقلت على جناح السرعة الى غرفة العمليات , و رغم كل المجهودات المبذولة شاء الله أن أفقد ابنتي فقد توفيت بعد ولادتها بساعات قليلة , لم أصدق الأمر , تعرضت لأزمة نفسية حادة أفقدتني القدرة على النطق يومها , حتى أنني لم أخبر أحدا بما حدث , تم نقلي بعدها الى قاعة أخرى لأرتاح فيها و لأبقى تحت الرقابة الطبية لأيام قبل أن أغادر المشفى , كانت معي في نفس القاعة شابة أخرى , كانت قد أنجبت طفلة أيضا , كانت جميلة و سعيدة , كنت أسترق النظر اليها و هي تلاعب طفلتها و تتحدث اليها بلغة الأطفال , شعرت أني أحسدها أو أغار منها, و أن هالة من الشر بدأت تسيطر عليّ, لا أدر كيف خطرت ببالي تلك الفكرة فجأة , عندما سمعتها تتحدث على الهاتف مع احدى قريباتها تخبرها بأنها تعاني من ضائقة مالية خانقة , و أنها عاجزة عن تسديد ديونها و عاجزة عن تسديد أقساط المشفى و أنها ترغب بالسفر الى أمريكا لانقاذ

ما تبقى من مشروع كانت قد بدأت فيه , قمت من مكاني و أتجهت نحوها لأقدم لها عرضي على طبق من ذهب,اقترحت عليها أن أسدد جميع ديونها و أن أدفع فوقها ما يعادل "مليون دولار أمريكي " مقابل شرط وحيد وهو أن تتنازل لي عن تلك الطفلة و أن تدعي بأن ابنتها هي التي ماتت و أن تلك الطفلة هي ابنتي أنا , لم توافق في بادئ الأمر لكن يبدو أن عرضي كان مغريا لدرجة أن تغير رأيها , أعطتني الطفلة و طلبت مني أن أعتني بها جيدا فحملتها و غادرت المشفى بعد أن رتبت الأمر مع مديرة المشفى ,احتفظت بها لأسبوع في منزلي , كنت أنتظر عودة زوجي لنختار لها اسما معا , و لنسجلها باسم العائلة , كنت بدأت أستعيد عافيتي و كان كل شيء على ما يرام , الى أن حدث ما لم يكن في الحسبان ,اتصلت احدى صديقاتي المقربات لتخبرني أنها سمعت من مصادر موثوقة بأن زوجي لديه امرأة أخرى في اسبانيا و لديه منها ابن أيضا و أنها هي التي اتصلت به ذلك اليوم لأن ابنه تعرض لحادث فسافر على الفور ,وقع الخبر كالصاعقة عليّ, لم أتحمل الأمر بعد كل الذي فعلته لأجله يخونني بتلك الطريقة ! شعرت بغيض شديد و بدأت في التحضير لاجراءات الطلاق ,شعرت أني لم أعد أرغب بالطفلة أيضا فبحثت عن والدتها لأعيدها لها , لكنهم أخبروني أنها سافرت الى أمريكا بعدما سددت ما عليها من ديون , حملت الطفلة و عدت بها الى نفس المشفى , وضعتها هنالك و غادرت دون أن يراني أحد أو هكذا اعتقدت !

كنت أصغي اليها كمن يستمع لقصة خيالية من فيلم سينيمائي ما , ما الذي تقوله هذه المرأة ! لاشك أنها مصابة بحمى الهذيان و أنها لم تعد تعي ما تقول !

ها أنا أكتشف مرة أخرى أن للكلمات وقع أشبه بالرصاص و أننا على قدر من الهشاشة لنموت أو نحيا على وقع كلمة , فمن أين لهذه المرأة التي بالكاد أعرفها و على هذا السرير البائس للمرض بذلك المسدس القاتل للكلمات لتطلق آخر رصاصاتها على آخر أمل كان لدي !, ثم ما الذي حل بذروعي التي جهزتها لهكذا موقف ! كيف خانتني هي الأخرى ! كيف سمحت لتلك الكلمات بأن تخترقني حتى آخر خط دفاع لدي !

أصبت بخرس الذهول و أصبحت فجأة و كأني أقف خارج الزمان و المكان , في مكان ما من اللاوعي , أحاول وضع شيء من الترتيب في أفكاري, لا أكاد أصدق !, لقد كان هناك ألف احتمال آخر لقصتي كان يمكن أن يكون مقبولا , كان هناك ألف احتمال كان يمكن بعده أن أمنحك صك الغفران كما أردت, كان يمكن بالفعل أن أغفر لك لو أنك قلت أي شيء آخر ..أي شيء عدا أن تحوليني لبضاعة رخيسة تباع و تشترى حسب قانون العرض و الطلب ثم تلقى عند أقرب حاوية للقمامة ما ان تنتهي الحاجة اليها.

اذن كنت أنا تلك الذمية التي شاء لها الحظ أن تقع بين امرأتين , كلتاهما خاضعتان لسلطة المال , احداهما قد تشتري بالمال أي شيء و أخرى قد تبيع لأجل المال أي شيء حتى و ان كان ذلك الشيء هو أنا لا غير !

جاء صوتك ليعيدني الى وعيي حين قلت :

- عندما رأيتك في منزلي ذلك اليوم شعرت أني أعرفك أو أني رأيتك حتما في مكان ما و عندما أخبرتني بأنك تبحثين عن والدتك عادت الى مخيلتي صورة تلك المرأة "أمك" , لقد كانت في مثل سنك و قد أصبحت نسخة عنها, ثم قلت و نظراتك تتسلق جسدي :

- ها قد أصبحت شابة جميلة و مفعمة بالحياة , أتساءل ما الذي حل بك بعدي؟

كان يمكن لحظتها أن أتفوه بأي كلام بديء أو أن أرتكب أي حماقة في حقك و لكن و لأن أصل الانسان يغلبه دائما وجدتني أقول لك بابتسامة تحمل أكثر من تفسير و أنا أتذكر كلاما سابقا قلته لي :

- الذي حل بي بعدك هو أني أصبحت أنتمي لمجتمعات منغلقة حررتني من عالم الرق -عالمك- و صنعت مني امرأة حرة لا تباع و لا تشترى

كان ردي محرجا بما يكفي لتغرقي بعده في لحظة صمت قبل أن تدخل علينا الممرضة لتذكرك باقتراب موعد العملية و لتستسمحني لأغادر المكان , كنت سأخرج عندما استوقفتني بقولك :

- انتظري ! أمك قد عادت , انها هنا بباريس

كدت أسألك بتهكم :

- أي واحدة تقصدين؟ أنا التي لم أعد أعلم كم أمّ لدي بالضبط , واحدة كفلتني و أخرى أرضعتني.. واحدة باعتني و أخرى اشترتني !

واصلت :

- لا أذكر ما كان اسمها لكني أعلم أنها تملك مطعما في نفس الشارع الذي أسكن فيه يحمل اسم "زهرة التوليب"

فاجأني اسم المطعم كثيرا لكني لم أقل شيئا , أبرمت ظهري فقط و انصرفت و كأن الأمر لا يعنيني.

* * *

ألقيت بخطاي خارج أسوار المشفى لأهيم على وجهي في شوارع هاته المدينة المنافقة دون وجهة محددة , بدا لي كل شيء مختلف يومها , الطرقات كما الأشخاص , حتى هذا النهر الذي لم يعد يستوقفني منذ زمن لا أدر كيف أغواني هذه المرة لأقف طويلا عنده, وجدتني أزج نفسي دون مبرر بين الأفواه المفتوحة انبهارا و بين العيون الخاشعة فوق جسوره بين من يرسم و بين من يكتب , حتى هذا النهر منافق ! لو يشي بما في قاعه من خبايا جنائية مريعة ! لو ينطق ماءه العكر عن يوم تلون بدماء الأبرياء , لربما تركوا ما بين أيديهم و لاذوا بالفرار, أم لعلهم لا يكترثون من يدري ! لعلهم منافقون أيضا , يرتدون فنهم قناعا للرقي فقط ! لا أنكر أن للمكان مقدرة عجيبة على تفجير مكمن الأحاسيس

لديك , هاهو يستدرجني لأجلس بينهم, لأخرج من حقيبتي ورقة و قلم كما لم تجر العادة , لأكتب ... ثم أمضي الى حيث تسوقني قدماي , الى ذلك الشارع لأبحث عن مطعم يحمل اسم "زهرة التوليب" لأصفي آخر حساب لدي

وجدته ! ها أنا أقف عند بابه , أفتحه بارتباك و أدخل , يستقبلني نادل ببدلته الأنيقة بعبارات الترحيب المعتادة و يدعوني لاختيار الطاولة الأقرب الى قلبي فأختار الطاولة الأقرب الى الباب كأني أستعجل بها رحيلي , أطالع لائحة الأطعمة الموجودة على الطاولة أمامي لأموه عن ارتباكي و عن نظراتي المشبوهة للمكان , أتفاجأ بوجود العديد من أصص التوليب تزين أركان المطعم ثم ألمح سيدة في عقدها الخامس تخرج من أحد الأبواب الداخلية لتلقي التحية على الزبائن , لا أكاد أخفي دهشتي و أنا أكتشف ملامحها الهادئة و النمش المتناثر على وجهها و شعرها الأشقر المرفوع بطريقة كلاسيكية بسيطة و ثيابها الأنيقة و البسيطة في آن.

لا أكاد أصدق! ها أنا أمام عبثية جديدة للحياة ! كيف لامرأة لا أعرف عنها شيئا و لم ألتقي بها في حياتي قبل الآن أن تشبهني الى هذا الحد و أن تشاركني حتى ذوقي في الحياة ! أي رابط ذاك الذي جمعنا و فرقنا في آن ! ثم أي عِلم ذاك الذي عليّ أن أدرسه لأفهم كل هذا !

قمت من مكاني و اقتربت منها عندما كانت مشغولة بالتحدث مع أحد الزبائن , ألقيت الورقة التي قمت بطيها عدة مرات في جيب سترتها دون أن تشعر بي ثم غادرت سريعا و أنا أردد تلك الكلمات التي ألهمنيها ذلك النهر البائس :

" التقينا اذن ! هاهي الحياة ترتب لنا موعدا حبريا على مساحة من بياض, تصورت لنا لقاءا أجمل ... لقاءا يليق بفراق باذخ الحرمان كفراقنا, لكن يبدو أن هذا لن يحدث , لا تسأليني من أكون ! ولا لِمَ أكتب اليك فأنا لا أعرف من أكون و لا حتى لِمَ أكتب اليك , لا أذكر من الذي قال بأننا نكتب لنقتل الأشخاص بداخلنا أو لنشفى منهم أما أنا فأدرك جيدا أنك أقوى من أن أقتلك بجرة قلم و أن جرحك أعمق من أن يشفى ! لنتفق أني معرفة قديمة أو شبه معرفة فقط, لنقل أني ذاكرة قديمة أو نصف ذاكرة فقط, لا يهم ! ماذا يهم ان أخبرتك بأني العمر الذي مرّ على غفلة منك ؟أو أني جرح يسير على قدمين ! .. ان قلت بأني مجرد وجع فاض حروفا على ورق أو حظ عاثر وقع بين امرأتين !, احداهما أنت ! أنا القلب الذي أفجعه غيابك فتعلم كيف يكبر أخرسا , لم يحدثني قط عنك , كان يخبرني فقط أن ثمة خطب ما.. حلقة مفقودة في مكان ما..كرسي شاغر لن يملؤه أحد و لم أصدقه

أنا البهجة التي لم تغمر أيامك و البسمة التي لم تهون آلامك , أنا العيد الذي لم تحتفلي به ...لا عليك فما هذا زمن للأعياد على كل حال, انه زمن للرداءة و للشكليات فقط , لم يعد العيد عيدا مذ أصبح الناس يغيرون تواريخ أعيادهم بما يتماشى مع مواعيد صالونات الحلاقة أو قاعات الحفلات , كل هذا لا يهم فقد تغيرت المعطيات , انه زمن للصفقات الدنيئة و المساومات القذرة ..انه زمن لما تحت الطاولات !

لا تسأليني من أكون.. أنا الأمس الذي عاد اليك من تحت الركام .. صفحة في طي النسيان..أنا الهرة التي ستكبر في رأسك و تتنمر و تطاردك في كل مكان

لا تسأليني من أكون..أنا عصفورة تيهتها الأقدار ..صفقة دنيئة أبرمتها ذات نهار .. قنبلة صنعتها بيديك و قد صارت جاهزة للانفجار ....أنا.....مليون دولار ! "

* * *

الفصل الثالث

الفصل الثالث

أغلق مذكرتي و أغلق النافذة و أغلق ملف هاته القضية أيضا, أغلقه في وجه الأسئلة التي لم أعد أستجدي لها جوابا , فما عاد يهمني أن أعرف من أكون و لا لأي قبيلة أنتمي فما عرفته كان كافيا جدا ليكبح جماح رغبتي في معرفة أي شيء آخر , لقد كان كافيا ليحقن مصل المرارة في دمي و ليصيبني بشلل نفسي لا أرجو منه شفاءا , بعد الذي عرفته كل ما أردته هو رؤية وجه تلك المرأة التي يفترض أنها أمي لأرسم لها صورة في مخيلتي لا غير , لأحتفظ بصورتها كما نحتفظ بسر دفين , لأستحضرها كلما احتجت لذلك , لأناديها بأمي ..لألجأ اليها كلما ضاقت بي السبل ..لأختار لها اسما على ذوقي و أخترع لها صوتا كما أردته أن يكون ..لأحدثها..لأفضي اليها و تفضي اليّ..لتحدثها سنواتي الأربع و العشرون عن أول يوم نطقت فيه بأمي أو "يما" على الطريقة الجزائرية , عن أول يوم ذهبت فيه الى المدرسة .. عن اسم أول صديقة اتخدتها ..عن أول شهادة تقدير حصلت عليها ,تلك التي علقتها على الحائط قرب الباب ليراها كل من يزور منزلنا , لأخبرها عن يوم وقعت من الدرج و نقلت الى المشفى و أنا أنادي بأمي لأجدني بين أحضان أم غيرها, لأحدثها عن هدايا عيد الأم التي

قدمتها لأم غيرها , و عن يوم تخرجي , عن الكرسي الذي ظل شاغرا رغم امتلاء القاعة حتى آخر كرسي و عن الكرسي الذي سيظل شاغرا في حياتي للأبد, عن الضجيج الذي لم يهدأ في رأسي و عن الجرح الذي سيظل ينزف في أعماقي للأبد, كل ما أردته هو أن أراها فقط و أن أطمئن لكونها تواصل حياتها بسلام من دوني و أنها استطاعت بالفعل أن تتخطاني و أن تبني مجدها فوق نعش الأمومة و أن تدوس بقدمها على رفات ذكراي و تمضي و كأن شيئا لم يكن, عدا ذلك لا يهم , لم يعد مهما أن أعرف من أكون فقد عرفت ما هو أهم, لقد وصلت لجواب لسؤالي الأهم , سؤالي الأعمق, سؤالي الأخطر الذي طرحته ذات نهار و الذي كان " كيف للمشاعر الفطرية أن تموت بداخلنا" و قد وجدت بأن الجشع قادر على تجريد الانسان من أي شيء و على الانحدار به نحو القاع بسرعة رهيبة

'الجشع' صفة انسانية بحتة و لذا لن ترى من الحيوانات من يتخلى عن غريزته تجاه صغاره و لا من يعلن الحرب على حيوان من نفس فصيلته , وحده الانسان يفعل , وحده الجشع ينحدر بالانسان لهذا المستوى , وحده الانسان يحرق الأراضي و يبيد الشعوب و ينهب الخيرات و يفجر القنابل لأجل أن يحصل على ما يريد , و لذا حدثت أول جريمة على وجه الأرض , و لذا أُسست أمم فوق أشلاء أمم أخرى , بل أكثر من ذلك لقد ركض بنا الجشع نحو عصر لم تعد الدماء فيه تسفك فرادى في الخفاء بل صارت تسفك بالجملة و على مرأى من العالم ! لقد ركض بنا نحو عصر لم يعد القتيل يعلم فيه لماذا قُتل و لا القاتل يعلم لم قَتل ! ليس مهما مادام ينفد الأوامر و مادام يؤمن رصيده البنكي, فما الغريب اذن في

أن أكتشف أني مجرد "هابيل" صغير لهذا الزمان يذهب ضحية لجشع و غدر أقرب الناس اليه !

ما الغريب مادام التاريخ قد استهل سجلات فجائعه بجريمة من نفس النوع , الفرق هو أني لم أمت خنقا.. مت قهرا , مت حسرة على ما ضاع من أمسي , مت خيبة و شفقة على نفسي , هل يوجد في الحياة ما هو أبشع من أن يشفق المرء على نفسه ؟

كم أشفقت على نفسي و أنا أجلس وحيدة على ذلك الكرسي في تلك الزاوية من المطعم , أطالع المكان بنظرات مشبوهة و أتأمل الناس من حولي يتناولون ما طاب لهم و أكتفي أنا بأكواب من المرارة أتجرعها بصمت مميت , يجهش قلبي سرا و أنا أتعرف اليها لأول مرة بعد ربع قرن من الفراق , أنظر اليها و هي تتنقل بين الطاولات تحدث زبائنها بكلام لا يصلني منه شيء دون أن تلتفت اليّ أو أن تأبه بوجودي بل و لعلها كانت في نفسها تستعجل رحيلي و ربما كانت قد نبهت ذلك النادل الذي استقبلني لأن ينتبه لمثل هاته الأشكال التي تأتي و تغادر دون أن تطلب شيئا ..دون أن تدفع شيئا !

لا عليك سيدتي فقد تناولت أكثر من أي شخص آخر كان هناك و لم تنتبهي, لقد تناولت بالفعل أطباقا دسمة من الألم و كؤوسا مرة من الخيبة ارتشفتها على مهل على غفلة منك, أما الحساب فقد سبق و دفعته منذ زمن بعيد, لقد دفعت عمري مقابل هذا المطعم و مثله , لقد دفعت الحساب بالفعل نقدا و لم تنتبهي لأن من هم مثلي يدفعون الثمن تحت الطاولات لا فوقها !

***

انقضت ليلتي و هاهي خيوط الفجر تتحرش بي من خلف شراشف الوحشة , ما أطولها من ليلة على هذا الكرسي...ما أطول التي قبلها..ما أطول التي بعدها , ما أوحش الليالي في ضيافة الألم , هاهو سريري المتربص بي منذ يومين للنوم يشدني و كأني أكتشف فجأة وجوده , يراودني الحنين اليه فجأة , رغبة في البكاء تخالجني , حتى هذا السرير البارد أرحم بي منها ! كم من الليالي على صدره بكيت..كم من المرات قمت متكئة على كتفه ..كم من ليلة بيضاء تقاسمها معي , هاهو ينتظرني الليلة أيضا بذراعين مشرعين و لا طاقة لي للمقاومة , أرتمي في حضنه و أستسلم للنوم.

نمت لساعات لا أدر عددها قبل أن أستيقظ على طرق في باب غرفتي , كانت أمي ,جاءت لتخبرني أن أحدهم بانتظاري في غرفة الجلوس , فتحت عينيّ بصعوبة بعدما أزاحت الستائر ليخترق المكان ضوء مباغت ,قمت من مكاني كسلى , نظرت الى الساعة على الحائط, كانت تشير الى التاسعة و النصف صباحا , من تراه يزورني دون موعد في وقت كهذا !

غيرت ملابسي و نزلت على الفور

كان شابا ثلاثينيا لم أكن قد رأيته من قبل , كان يرتدي بدلة رسمية و يحمل حقيبة في يده , ألقيت التحية بالفرنسية كما أفعل عادة مع الغرباء ثم سألته كيف يمكنني مساعدته ! أخبرني و هو يناولني بطاقة تعريفه بأنه محامي السيدة أنجيلا و أنه جاء لينقل اليّ ببالغ الحزن خبر وفاتها !

فاجأني الخبر كثيرا , سألته بصوت غائب :

- كيف ؟ و متى حدث ذلك؟

قال :

- لقد توفيت أثناء عمليتها الأخيرة قبل يومين

عبرت له عن مدى أسفي لما حدث , ثم طلب مني أن أوقع له وثائق كان قد أخرجها من حقيبته , استغربت الأمر , سألته لِمَ قد أوقع أنا وثائق تخص السيدة أنجيلا ؟؟

ليعود و يفاجأني بقوله :

- السيدة تركت لك في وصيتها الأخيرة نصف ثروتها ثم واصل أمام دهشتي بعينين تفيضان حزنا :

- لقد كانت تشعر بالذنب اتجاهك و قد أرادت بالفعل أن تكفر عن خطيئتها معك , أتمنى أن تغفري لها

وجدتني أجيبه دون كثير من التفكير :

- المغفرة لا تشترى بالمال سيدي !

ثم واصلتُ بعد لحظة صمت :

- و مع ذلك فأنا سأغفر لها حتما ذات يوم ,فنحن دائما ما نغفر للموتى في نهاية المطاف !

للحظة لم أصدق ما يحدث, بدا لي الأمر و كأنه مزحة ثقيلة , اطلعت على الوثائق لأتيقن بأنه لم يكن يمازحني و بأن السيدة قد تركت لي بالفعل مبلغا ضخما من المال

هاهي الحياة تحمل لي في هذا الوقت المتأخر من الصباح احدى مفاجآتها الكبرى , و كأنها قررت أن تعتذر لي عما حل بي ليلة البارحة و عن كل ما حل بي من خراب قبلها

كنت أدري بأني لن أنفق شيئا من ذلك المال على نفسي , ما كان يمكن في أي حال من الأحوال أن أفعل ذلك ولذا فكرت في انشاء مؤسسة ضخمة للطفولة المسعفة هنا بمرسيليا , قررت أن أجهزها بكل السبل العصرية للراحة و أن أجعل منها أهم مركز للايواء في البلاد , و لكن قبل ذلك كان لدي مهمة عليّ القيام بها فور استلامي للمال

حملت نفسي و عدت الى غرفتي , شغلت جهاز الحاسوب و بدأت في اجراء أبحاث و اتصالات كنت بحاجة اليها , ثم انتظرت الى أن حانت اللحظة..

اتجهت الى المطار و حجزت تذكرة سفر الى سويسرا ثم اتصلت بعصام لأدّعي بأني عالقة في مأزق و بأني بحاجة ماسّة الى المساعدة لأفاجأه بأني رتبت له موعدا لدى أمهر أطباء الجلد بسويسرا و بأن طائرته ستقلع بعد أقل من ساعة....